
روايات الهلال
مريم.. التجلي الأخير
رواية ابراهيم عيسى
مدونة ابو عبدو

روايات الهلال

Rewayat Al Hilal

سلسلة شهرية لنشر القصص العالمي

تصدر عن

مؤسسة دار الهلال

رئيس مجلس الإدارة

مكرم محمد أحمد

نائب رئيس مجلس الإدارة

عبد الحميد حروش

رئيس التحرير

مصطفى نبيل

سكرتير التحرير

محمود قاسم

ثمن النسخة

سوريا ١٠٠ ليرة / لبنان ٦٦٠٠ ليرة / الاردن ٢١٠٠ فلس / الكويت ١٢٥٠ فلسا / السعودية ١٢ ريالا / تونس ٢ دينار / المغرب ٢٥ درهما / البحرين ٢٠٠ر١ دينار / الدوحة ١٢ ريالا / دبي . أبوظبي ١٢ درهما / مسقط ٢٠٠ر١ ريال / غزة والضفة والقدس ٢ دولار / لندن ١.٥٠ جنيه

العدد ٥٣٥

يوليو ١٩٩٣ ● محرم ١٤١٤ هـ

NO - 535 - JUL -1993

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى ٣٦ جنيها فى ج . م . ع . تسدد مقدما نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٢٥ دولارا - أمريكا وأوربا وآسيا وأفريقيا ٣٠ دولارا - باقى دول العالم ٤٠ دولارا .

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال .. ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

للاشتراك فى الكويت : السيد عبدالعال بسيونى زغلول الصفا ص . ب ٢١٨٣٣ (13079) ت : ٤٧٤١١٦٤

الإدارة : القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت : ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) المكاتبات : ص . ب : ٦١ العتبة - القاهرة - الرقم البريدى ١١٥١١ - تلغرافيا : المصور - القاهرة ج . م . ع .

تلكس TELEX 92703 hilal u n

فاكس : FAX 3625469

كُلُّ مَنْ يَرْحَلُ فى الليل إلى الليل - أنا .
كُلُّ ناى قَسَمَ الحقلَ إلى اثنين :
مُناد ومنادَى لا يناديه - أنا .
كُلُّ ما يُعجبنى يحتلُّهُ الظلُّ هنا
كُلُّ مَنْ تَطلُبُ منى قُبلة عابرةً
تسرق روحى .. وخُطاى .
كُلُّ طَيرٍ عابرٍ يأكُلُ خبزى من جروحى
ويُغنى لسواى .
كُلُّ مَنْ يضربه الحبُّ يناديني
لكى يزداد أعدائى .. فراشة
كُلُّ مَنْ تلمس نهديها لكى يخمش عصفوران قلبى ...
تتلاشى
كُلُّ جذع لَمَستْهُ راحتى طار سحابهْ
كُلُّ غيمٍ حطَّ فى أغنيتى صار كآبهْ
كُلُّ أرض أتمنَّاها سريراً
تتدلَّى مشنقة
... واحبُّ الحبَّ إذ يبتعد الحبُّ
أحبُّ الزنبقة
عندما تنوى على كفِّى وتنمو فى نشيدى فانتظرنى يا نشيدى
ربَّما نحفر فى هذا المكان
موطنا للروح من أجل غريبين يمرَّانِ على الأرض
ولا يلتقيان
آه ، من هذا المكان
آه ، لا شىء يهزُّ القلب فى هذا المكان

محمود درويش

جميع الأشعار الواردة على أغلفة الفصول لمحمود درويش .

(١)

سلام على إبراهيم

دخل إبراهيم المعبد ..

ترك ضجيج القوم ..

ودع النار المتأججة للعبادة ..

وزحام أعراس المدينة ..

ومواسم التدين

ودخل إلى المعبد

أصدر الباب الجهم الثقيل دوياً موحشاً ..

أدار إبراهيم نظراته فى المكان ..

أنوار نحيلة تدخل من نوافذ ضيقة تبث أشعة الشمس إلى المعبد .. والظلام يملك الفضاء المطوق لسبعين صنماً .. (كما عدها إبراهيم) أمسك بفأسه ومصباحه .. وأزاح طرف جلبابه .. وسار بينها ..

أهذه أصنامهم التى يعبدون ..

كانت الأصنام هائلة الحجم رغم تباينها مرفوعة القامة .. قاسية الملامح.. دقيقة القسمات .. اقترب إبراهيم نحو الأصنام يستبين ملامحها .. هنا .. يركع الناس .. ويبكى الآثمون .. وتنتحب النساء .. ويخاف المؤمنون .. يلتفت إبراهيم هنا .. تسلب الإرادات .. ويصدق القوم .. ويسجد الموتورون .. يصرخ فى سبعين وثنا ...

- انطقوا .. تكلموا .. من منحكم الألوهية .. من جعلكم الأقوى والأغنى والأشرف والأنقى لماذا يصدقونكم .. ؟

كيف ينشغلون بكم عن الله ؟

أمسـك إبراهيم بفأسه وهوى على الأصنام .. محطماً .. كان قوياً .. وعنيفاً .. ومؤمناً ..

اشتد لهثه .. وغزر عرقه .. وانتفض بدنه .. واتسعت عيونه .. وبان على وجهه - حين انعكس عليه ضوء المصباح المعلق على زاوية - بان شروق ووهج .. كانت الحجارة تتناثر .. تتساقط .. والأصنام تترنح .. تتفتت .. تتلاشى .. ويشق إبراهيم بفأسه فى الحجارة .. تتفلق .. تتشقق .. تتحطم ..

وبلغ بإبراهيم التعب مبلغ تعب الفرسان حين انتهاء المعركة وخلو الميدان .. ورحيل الغبار عن مرأى العيون .. فاقترب من كبيرهم .

صنم مصنوع بأكف عبيده .. ضخم .. شرس .. طويل .. يلقى بالرهبة والهيبة فى نفوس ضعفائه محلى بالقرابين والنذور .

توقف إبراهيم وصعد درجات السلم ووضع فأسه فوق كتف الصنم .. شعر براحة النصر وحلاوة الوصول .. هاهم الآن سيرون أصنامهم وقد تحطمت وسقطت .. وسيسألون كبيرهم فلا يجيب ولا ينطق وسيشعرون بخزى الكفر وخذلان الآلهة .. وعار عقيدتهم ..

ارتجف بدن إبراهيم لما سمع هدير الناس يقترب من المعبد .. يفتحون بابه .. ويطلقون بخورهم .. ومصابيحهم .. يمتلىء المعبد بنور وهّاج وضجيج صاخب وزحف لاهث ..

التاع إبراهيم .. فوجىء .. بوهت .. ارتج تماماً .. كان الناس - جميعا - يتحلقون حول الأصنـــام يعبدونها يتقربون إليها زلفى .. ويضعون أمامها القرابين .. ويتحسسون أجسادها الحجرية الثابتة ..

صـرخ إبراهيم فيهم - لقد حطمتها .. انظروا هاهى قطع الحجارة

المتناثرة .. شظايا الحطام .. بقايا آلهتكم .. ماذا تعبدون الآن .. أين هي ؟ لقد تحطمت .. ألا ترون ؟

وحدثوا أنفسهم عن هذا الشاب المعتوه . ماذا أصابه ، لم يمس أحد آلهتنا بسوء .. هاهي صلبة قوية ثابتة كما كانت .. من يجرؤ على أن يحطمها يافتى .. وضجوا بالضحك .

(٢)

الانكشــــاف

أما زال من حقنا أن نصدق أحلامنا
ونكذب هذا الوطن .

دق المنبه مسماراً فى جلدى .

تبددت الظلمة التى لونت الحجرة .

تحولت الأشياء أشلاء .. والأفعال أسماء ..

أحسست أن أحداً يركب راسي .. وأن الملاءة التى انزاحت قليلاً على الأرض . وقدمى التى بانت تحت الغطاء .. دليل مقاومة لتجربة موت مفاجيء

روحى كأنها طلعت فرنتها أيدى المخرج لانتهاء «البروفة» جسدى تصلب ظهره وعندما حاولت أن أفرده ظهرت دماء تغطى السرير كله .. نشبت قبضتى فى طرف الوســادة وتذكرت أبى لحظة صعوده سلالم الحديقة الصغيرة ممسكاً بعود فل ..

ألقيت عليه السلام فى ندى الصبح الملفوف بنشرة الإذاعة وتسلقتُ روحى الطالعة .

أكان كابوساً ، وهل يظهر فى الكوابيس وجه أبى الصافى الرقراق ومصحفه وفله وزقزقة العصافير وثمار الليمون على الشجر وحبات الجوافة التى جمعها أبى من أرض الحديقة .

أكان حلماً .. إذن كيف هذا الدم يغطى السرير .. ؟

أين هذا الدم ؟

أين أنا .. ؟

وعاد المنبه يدق مسماراً في جلدي .. فقمتُ .

الشارع ملفم بصمت الصباح .. والسيارات تمضي لوجهتها المنتظمة ، البنايات ترجم التاريخ بالثبات واللحظات تتستر خلف الساعات .. ومركبة نصف نقل تعطي ظهرها لبائعة الصحف ذات الثوب الأسود الرديء .. يقذف العمال من بطن السيارة بأربطة صحف الطبعة الثانية .. وتفك السيدة الحبال الرفيعة المحيطة بالصحف .. بينما تمضي السيارة في منحنى أخر وقد ركب العمال جوار السائق .. بينما انضم رجلان إلى السيدة يتعجلان شراء صحيفة مجلة بأكذوبة انتصار ونصر أكاذيب .

مبنى المجلة (ثقلٌ في القلب وهمٌ بالليل ووجعٌ بالنهار) مقاعد ردهة الاستقبال مقلوبة على مؤخراتها .. مكشوفة العورة وقد انحنى عامل يمسح الأرض التي خلع عنها سجادتها وانكشف بلاطها الباهت ، غرق في مياه ثقيلة بالصابون وروائح سوائل التنظيف فاضحة .. وتشكيلات غريبة مرسومة على المياه ، انبعاجات والتفافات وسهم غليظ يشير إلى اقتطاف ثمرة مقشرة وكف دون إصبعه السبابة وتسع وعشرون نقطة فوق حرف واحد كأنه النون وطريق وعر تعبره كتل صابون وبحيرة مياه تردمها قدم العامل الحافية لتمحو عناوين الإثم المباح .. وطفل محشور في صدر أمه . والمصعد ينفتح عن مرآة مستطيلة معلقة وسقف تتوسطه مروحة هواء معطوبة .. وجدران قصيرة ضيقة مطلية بالرصاصي وقطعة سجادة تفتتها الأحذية وزجاج مقذوف بطلاء قديم يحجب الرؤية .. وأزرة تقليدية توقف كثير منها عن العمل بفعل مفعول به .. ووجه عامل مصعد يخفي شاربه تحت شفتيه ويلد إبطه مساند مقاعد .

الممرات ضيقة تقترب من انطباق جدرانها على القلوب العابرة .. فتهشمها وتقصفها على الطلاء فتنزلق كأنها المياه تقطر من أصابع مبلولة مستندة على الجدران خشية التزحلق . اللوحات المؤطرة بخشب قرمزي ورسومات حفظت ماء

وجهها أمام الفناء السرطاني ينهب الذاكرة والذكريات وألوان الزهرة وابتسامة الصغار وضحكة مجلجلة لرجل مات لحظة ما أيقظته زوجته ، وكتابات الصحفيين وخناقات أدمت الطرق الممهدة إلى ميادين القلوب الفسيحة واقتسامات أطعمة صباحية، سقطت قطع الطماطم والخضر من جوفها على أطراف المكاتب ..

تضيق الردهات .. مقفلة بالنهاية العاجلة .. وخرافة الاستمرار فى خط مستقيم (أقصر الطرق للوصول إلى اكتشاف الوهم) .. فإذا بصالة التحرير الواسعة تقتطعها المكاتب .. وامتلأت الأرض بمياه الغسيل الصباحى بينما احتلت أسطح المكاتب سلات القمامة الفارغة والمقاعد المقلوبة فوق الزجاج استوت عليه دوائر كعوب الأكواب الزجاجية ولزوجة بقايا المشروبات أنيب فيها سكر مهدر وقصاصات صحف تحت الزجاج تفصح عن أصحاب المكاتب بأبيات الشعر وصور الفنانات وآيات القرآن الكريم وصورة جمال عبد الناصر ومظروف خطاب وأوراق تنبىء صاحب المكتب بسؤال هاتف أو قدوم زائرين .. والنوافذ مفتوحة على الشارع زجاجاً مخربشاً يدارى رؤية العمارات المجاورة .. وقد تعلقت على الزجاج المطل على شارع ضيق تحاصره المجلة وعمارة مقابلة ، تعلقت رسومات ملونة وصور مغطاة بالتوقيعات ووجه فتاة إعلان أجمل ما فيها زيفها البرىء .

يفرغ العمال من عملهم ويفرغ العمل من معناه وتجرجر حروف الجر أسماءنا على سطور اليوم الأولى ..

وإذا بخفوت المجلة ينقلب ضجة مدرجة على ترمومتر فقد زئبقه وتبادلت الأيدى أوراقاً ..

أمزق ورقة وألقى بها فى سلة المهملات .. أقف متلهفاً .. أبحث عنها فلا أجدها .. أقلب السلة فوق زجاج المكتب .. أعثر على مزقات منها .. أجمع القطع الصغيرة المبعثرة أضعها صفاً متجاوراً لعلها تكون الحروف الممزقة والكلمات المبتعدة ..

يندهش أصحابى من وقفتى .. فأرى كل واحد منهم قطعة مبعثرة تبحث

عن أخرى كى تكون معنى فلجمع الأوراق إلى سلة المهملات .. وأطلب شاياً بالنعنا ع وملعقة سكر واحدة ..

تتحوصل الأحزان فى الصدر عندما يكتشف الرجل أن الطرق التى حفر إليها قدميه قد صارت أسفلتا منصهراً لا تسير فوقه عربات وتغوص داخله الأحذية ويذوب فيها كما قالب السمن فى جوف إناء على نار نصف مشتعلة يدور القالب فى دوامة الغرق الأولى ثم يتفتت ذرات دقيقة تتلفت حول نفسها حتى تتلاشى في سائل أصفر محروق .

والأحزان فى هذا المبنى شىء كالإفطار الصباحى يمكن ألا تتناوله ولكنه يظل إفطاراً .. شىء كالماء يمكن ألا تشـــــربه لكنه يظل ماء .. يظل مرسوما على جبهتى -- تحديداً - لاعباً فى مضمار العدو يستعد للجرى لحظة انفجار العلامة .. ضغط الزناد أو إسقاط الراية أو صفارة طويلة تنتحب .

لذلك لم يكن غريبا أن يبرد الشاى فى كوب خزفى على مكتبى وأنا ألون أوراقى البيضاء بدوائر مفتوحة وفتحات مغلقة .

شارع الهرم خالٍ فى الليل الأخير .. والسيارات تمرق عاصفة .. ومركبة (مغلقة على سائقها وقاطع التذاكر) تنهب الخلاء وتدغدغ الهدوء المستعار ..

أعبر الشارع فأشعر بسيارة نقل تكاد تدهسنى .. أنقل قدمى للرصيف .. بينما يصفعنى هواء السيارة المسرعة ..

هكذا تتحول الأشياء فى المجلة .. دقات العمل اليومى المبعثرة فى جوارحنا تقلبنا فى موضوعات متعجلة وكتابات تملأ الأحبار السوداء ونسكب كلنا جميعنا على الأوراق والألسنة .

ما الذى أتى بى إلى هنا ؟

المجلة فى شارع قصر العينى .. والأوراق تهرس أسنة الأقلام.. والوجوه مخططة على فضاء غرفة التحرير المتسعة .. أعلق على صـدورهم لوحات

بأسمائهم .. واثبتهم فوق عيني كأنني أضبط عدسة التصوير .. والتقطهم واحداً واحداً على هذا الفيلم الفوتوغرافي الملون يطبع في ٢٤ ساعة للمتعجلين .

ماذا لو لم نضغط على زر التشغيل .. ماذا لو طال وقوفهم .. لو تمثلوا أصناما لن نعبدهم .. لكننا - أيضاً - لن نحطمهم :

مرة أخرى أصنع لنفسي في هذه الحالات صوبة حزن ، تنمو فيها الأشجار في غير مواسمها .. ما الذي يغضبني الآن .. هاهي دموعي .. أقفز من مقعدي نحو الممر الضيق إلى دورة المياه .. ألحق دمعتي الأولى بظهر كفي عند وصيد الباب أتحسس هويتها هل هي الدمعة المُعذبة التي تأبى النفس سقوطها فتقاومها كأنها الطوفان نبني لها سدوداً لكنها تعبر .. نحتجزها عند ناصية العين لكنها تقتلع قلب الهويس .. وأنهرها وألعن أباها لكنها تستمرىء عذابي .. وتدوس على الجروح المفتوحة ، وتشق طريقها حتى الجفن ، ساعتها يكون عذابها في فضيحتها .. فأحاول إخفاءها عن الآخرين ..

أم هي الدمعة الساخنة التي ترتجف مرتعدة داخل برودة الصدر تخشى أن يجمدها التماسك وتثلجها محاولات الصبر تتخذ عافيتها المقاومة لانهيار الدموع.. فتصاب هذه الدمعة بالحمى ، تصعد حرارتها حتى سقف الدماغ وتغلى في الجسد بأسره فتتداعى لها سائر الخلايا بالحمى .. حتى تتمكن من الانفلات .. والوثوب إلى الجفن .. فتهتز تترنح إثر مقاومة طويلة ، وتتزلق من العين ساخنة ملتهبة تفك سطح الثلج المصطنع فينكسر شظايا .

أم ربما تلك الدمعة المتطهرة .. حين أنوب ضعفاً أمام ذنوب البعاد عن الأهل والرب .. عندما تتمزق الذكريات في دفتري وتتشطر الصور القديمة فأنسى أصحابها وتتوه ملامحهم عني وأنكر أخي الصغير بسمنته الطفولية يسأل عني .. موعد حضوري . لحظة وصولي.. مسافة المكوث معه في منزلنا الجميل ...

أم هي المراوغة الدمعة الكاوية التي تُعشم بالنسيان .. وتعطيك أمان الرحيل .. وتسترد رجولة عينيك الخالية من آثار الدموع .. وتحاول مواصلة الحياة

فوق نفس سطورها التى تركت الكتابة فوقها منذ لحظات .. وتكمل نفس حروف الهجـــاء التى ودعتهـــا خالية لحظة التوقف .

وتسترد وضوح النظرات ودقة الملامح الواقفة أمامك .. بشراً أو لوحات على حائط أو قماش الستائر أو شجرة وظلها ، ويبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود .. لكنها فجأة كالحوت المرعب تظهر .. فتحطم كل شيء أمامها ، وتسقط على الغد كاوية تأكل الجلد حزنا وتبدد وتبعثر وتفرق وتنثرنى من علٍ .

أعود لمقعدى .. أحاول الكتابة وأجر القلم على السطور كأنه يسحب خيطاً جلدياً من فوق ثديى إلى الورق .. ثقيلاً بطيئا محملا بهزيمة كاســحة يخشى التوقف جبناً أو ضعفاً . فيبول كلمات بالأزرق الحامض ..

الكتابة عن زيارة أخيرة لمسئول عربى إلى العاصمة القاهرية ...

أم عن فتوى دينية أخيرة رجت عروق المثقفين المفرغة من الدم الحقيقى (أحمر ، سائل ، ساخن) .

ثم ماذا ؟ أقدم الأوراق لمدير التحرير ، فيعبث قلمه في ملامحها ويكشط أشياء تمنحه أسطورة النفوذ الصغير ، وتمنحنى حنقا مستجداً عليه وعلى الكتابة وعلى اليوم الذى جيء بنا إلى هنا .

أما هنا فقد تكون الحياة .. أو القاهرة أو المجلة !! هنا .

قد تكون الأرض أو الكون أو الأدمية .. هنا .

هنا نقف فلا أحس عمرى ولا قدمى .. وأشعر نفسى كائنا مغطى ببذلة رواد الفضاء أفقد توازنى الأرضى وأصعد نحو السماء أداعب قمراً صناعياً وأطلب منه قلبا صناعيا يليق بى .

توقف القطار قبل محطة مصر وبعد شبرا الخيمة تتبلد عجلات القطار فوق القضبان المنحولة فى هذه المنطقة الطريق يظهر وكأنه منبت الصلة بالوجود .. يحيط سوران (عن يمين وشمال) بالقضبان . البيوت قصيرة صغيرة مدفونة فى

القدم والرثاء لمبادىء العيش الآدمي .. عشش بالخشب والصفيح والماعز البنية والسوداء المتجولة .. حبال الغسيل المنشور فوق الأسطح الضيقة والطرق الشريطية التي تسدها نراعا صبي يعاكس أخته القادمة .. الطلاء المتساقط عن الجدران وخطوط بذيئة تحكي عن إعلانات محلات فقيرة أو محام بالنقض (أي نقض).. ولافتات دعاية انتخابية مرت عليها سنوات كافية للضحك على شعاراتها البالية (والتي كان لابد أن تكون كذلك) ورؤوس تعبر نوافذ مفتوحة على غرف مطلة على شريط القطار .. تليفزيون ملون حديث فوق مائدة طويلة، الثلاجة بجوارها ، وتبدو قوائم السرير بملاءاته وزاوية صوان ملابس مفتوحة ضلفته عن ملابس مكرمشة مكومة على وشك السقوط على الأرض . وصورة ملونة مؤطرة بخشب فاقع النوق لشاب بشارب كث ، وشعر مبعثر وابتسامة للمصور أن يسرع ..

وهناك شارع أحمد حلمي على الضفة الأخرى .. لا تبدو منه سوى سيارات تعبر من حين لآخر ومحلات مفتوحة وعمارة مشرعة البناء ولافتة قماش معلقة بين عمودي إنارة عمودية ..

الهدوء مثل شرنقة دودة القز في سقف علبة كرتونية لطفل مندهش باللعبة فقتل الشرنقة فوق ورقة التوت.. هكذا دهسته عجلات القطار عندما أعلن أنينه المفاجيء وسار بطيئا مسافة قصيرة ثم عاود التوقف .. فبانت مدرسة ابتدائية ذات فناء مربع مفزع الاختناق وقد انطلق جرس الفسحة فاندفعت الاجساد الصغيرة في الحوش تعصف بالصمت .. علم المدرسة يرفرف مع نسيم اكتوبر الخريفي في هذه الساعة من الصباح ..

كان سهلاً أن أفزع من تأخر القطار إلى هذا الوقت في أول أيام الذهاب لدراسة الصحافة (قد لا أستطيع استعارة كلمة بذيئة تناسب ندمي) .. الساعة تقترب من الحادية عشرة صباحاً وهو الوقت الذي يكفي لتناول فطيرة الفسحة في مدرستنا بالمدينة هاهي تعبر عليّ وأنا في القطار لم أقترب بعد من ميدان رمسيس من سيارات الجيزة من مدخل جامعة القاهرة المفروش بالاختلاف من سلالم الكلية

فى الدور الرابع .. من مدرج واحد .. من وجه العميد يرحب بالطلبة الجدد ، من الوجوه الغريبة التى لا أعرفها ولا تعرفنى ولا تناديني باسمى وتصافحنى وتتشاجر معى على نتائج كرة القدم وحق الزمالك فى الفوز بالمباراة ولا تطلب منى الكتابة فى مجلة حائط ولا تسلم على أبى وتمر علىّ فى النهار بعد صلاة العصر فتقف أمام باب منزلنا نتفق على وسيلة لقضاء الليل فى مدينتنا الصغيرة الفارغة.

صباح اكتوبر يُعلم فى ملامح وجهى .. من نسائمه المندسة فى أنفى للآن هذا الصباح المكلل التاريخ ..

هذا التاريخ الملون باللاجدوى ..

هذه اللاجدوى المزينة بالانتحار ..

هذا الصباح .. التاريخ .. اللاجدوى .. الانتحار .. هذا الأنا ..

انتهت أوراق الموضوع .. وحملته إلى مدير التحرير .. وانشقت ضحكته وكلماته .. فانفتقت بالونات حمراء فى يد بنت خالى فرقعت وبكت الطفلة ، تحول الكائن الجلدي المنتفخ إلى قطعة ممزقة فى إصبعيها الصغيرين الناعمين ..

وضعتُ قطع البالونة فى سلة المهملات وجلست أمام فهمى شاكر كان علىّ لحظة جلوسى أمامه أن أعيد تركيب الوجه المفرود لعينى على نحو يوضح الصورة – اللعبة .. أن أزيح فمه ناحية اليسار قليلا .. وأبرز عظام فكه وأثقل حواجب الشعر وأن أضع مسحوقا بنيا تحت عيونه وعلى خده كى يبدو وجهه بزواياه المتعددة أمام أضواء التصوير .

أضع ورقى أمامه .. فيثقل كفه على الصفحات ويسألنى عن الأحـوال . الأحوال هى صياغة مسرحية مكررة للكلام عن حوادث المجلة .

يسند يده على مسند المقعد ويؤكد إبتسامته المتسعة ويمسح كلماته بلبوية جافة من حرارة الصدق (إذا كان موجوداً وإذا كانت له حرارة) ويطلب منى أن أخفت صوت معارضتى قليلاً لمحمد الطحان فإن له نفوذاً لدى رئيس التحرير .

يقبل فمه زجاج اللزاجة .

- لا تعرف ماذا بينهما تحديداً .. أمس قال لى الطحان إنه قد اتصل به من لندن ..

وجه ديانا سبنسر على صفحات مجلة ملونة فى يدى والقطار يلقى على حقول الدلتا تحية مؤمنة بجدوى وجود الزهر .. وتقترب عرباته من محطة بلدتى .. أقوم وأقف فى صف نصف طويل ثلاثة أرباع مزدحم أمام باب الهبوط .. ويتلكأ القطار فى دخوله للرصيف ثم سرعان ما تتكشف بلاطات الرصيف المربعة الصغيرة الحمراء والشجيرات المزروعة فى بطنها واللون الأخضر المترب الذى يكسو أوراقها .. والصمت المغربى الذى يبلع البلدة .. وأقدامى التى تنزلق على مهبط الرصيف إلى ساحة الحقول المحيطة .. أخطو فى المدق بين الحقلين والشمس تلوح لى أنها ماضية والأطفال يثيرون غباراً حول ثيابهم ، وكلب هناك يجرى بين زروع البرسيم .. وقلبى مغلف بورقة مصقولة تشبه قصفصة علبة التبغ.. تحجز عنه الاكتئاب وترد عنه السعادة أيضا . أقبض على أوراقى وأعبر إلى شارعنا الأسفلتى الطويل وأدخل إلى منزلنا فتنتظرنى قنبلة الاسئلة عن أول أيام الجامعة عن دروس الصحافة ، عن أصدقاء اليوم الأول .. المواصلات .. فرحة إخوتى ببطاقتى الطلابية الجديدة ، وصورتى الأبيض والأسود التى التقطت لى خصيصاً لبطاقة الجامعة .. ونظارتى المعدنية التى انتويت تبديلها عند دخول العام الجامعى .. ويصعد أبى من الحديقة ممسكاً بمصحفه ويلقانى بابتسامة ودودة وسؤال متمهل عن التجربة ، سؤاله يعنى كلمة واحدة خير .. وأمى تجهز طعام الغداء ساخناً .. والتليفزيون يبث مسلسله اليومى ويحلق فوق رأسى عصفور الانقباض الصغير يتمنى أن يفرد جناحيه ليطير أو تدس بندقية صياد برصاصة فى بطنه حتى يرتاح ..

يهبط العصفور آخر الليل عند وسادتى وأنتظر صباح اليوم التالى يبدأ بكف أبى الحانية على كتفى وإلحاح أمى أن أفطر وإخوتى المتفرقين إلى مدارسهم

لدىّ إحساس أن الطحان مكلف بأداء مهمة من قبل المباحث .. وخاصة أن صادق كرئيس تحرير لا يمكن أن يسمح بهذا الهامش من حرية تصرف رئيس قسم عنده إلى هذا الحد ، فهو بالتأكيد يستمد شرعيته وسطوته من جهاز أعلى هو الذى فرض صادق نفسه كما يمكنه أن يفرض الطحان - أجلس .. يتمم فهمى ملف استنتاجاته ..

- وإلا بم تفسر ما يحدث .. الجميع ينفض عن صادق في الوقت الذى تجد فيه الطحان ملتصقا به .. بل ويتصل به من لندن أثناء زيارة رئيس الجمهورية ، طبعاً إذا لم تكن المكالمات مجانا ما حادثه ، لكنه لم يحادثنى أنا فى البيت مثله ، بل طلبنى عاديا جداً فى العمل وباعتبارى مدير التحرير لازم يتصل ويعرف تطورات العمل في العدد .. ثم أننى لعلمك أعرف أن بينهما زيارات عائلية وطبيعى جداً أن يكلم الطحان ، صادق كثير التحالفات والتوازنات ، ويمكن أن يغير كل هذا فى لحظة عين ولكن ذلك يفسر جيداً أن هناك إما مصلحة مباشرة له فى نفوذ الطحان بالمجلة ، أو أنه مفروض عليه .. وعلى العموم أنا لا أستطيع أن أشكك أبداً فى ذكاء صادق ..

سقط العصفور فى ماء مغلى ...

أحيانا ما أشعر بانقباض من هذه التطورات المتلاحقة فى المجلة لكننى لم أبتلع يوماً اغتصاب براءتى إلا من هذا الرجل الذى أخاطبه متبسطا وأتودد له معجباً وينصحنى عاطفاً ويكسب من تحريك جسدى ناحية القطعة البيضاء فى الشطرنج الذى يغدو فوق رقعاته المنقطة .. تسقط كل القطع. الحصان والفيل والطابية والعساكر والوزير .. ويبقى الملك .. يرفع تاجه الخشبى ويضحك ملء شدقيه فتخرج سوائل ريقه المقرفة فتمرغ رقعة الشطرنج .. يطلب رقعة جديدة تليق بالمنتصر ..

كش ملك .

آه .. يخرب عقلك ياأحمد ..

يضحك أحمد وتتكدس ضحكته فى فراغات الغرفة .. زهقنا من كتابة هذا البحث السخيف الذى طلبته الدكتورة عواطف .. فنزحنا الأوراق والإحصاءات والنتائج والجداول وتحليل المضمون (ابحثوا لنا عن مضمون لنحلله) ونبدأ عشاءنا فى منزل أحمد العامر الضاحك .. ويأتى طبق البلح الأحمر الطازج أمامنا فنعصف به وتتكتل النوايا على أطراف الطبق ..

فنخرج من بيت أحمد إلى خيمة الامتحان والمقاعد الخشبية ذات النتوءات تخدع ملابسنا فتلتقط منها خيوطا .. وبطاقات أرقام الجلوس على حواف الموائد الصغيرة ورجفة الامتحان ولهفة الانتهاء ومشقة المراجعة بيننا لإجابات الأسئلة ..

وسهرة المقهى فى آخر ليالى الامتحانات ..

ينهض الملك على رقعة شطرنج نظيفة ويحيى الجمهور .. تأتى الفيلة والأحصنة والعساكر ترحب بمقدم قطعة الشطرنج الجديدة .

نحن - هنا - وجميعا - كلنا - نضع أوراق التوت الساترة تحت إبطنا ونمشى فى ردهات المجلة ، فلماذا يخفى فهمى شاكر انهزامه أمام منصبه فى عينيه المختبئتين فى تردد لا ينتهى .. لقد ربط عنقه بقوائم المقعد وها هو يسير فى كل اتجاه ، نحو القسم الفنى حيث يراجع موضوعه بعد الجمع التصويرى أو إلى صالة التحرير حيث يقذف بكلمة باطنها الوقيعة - وظاهرها المودة والدعابة .. فى طريقه إلى المصعد يمسك بكتبه وأوراقه وميدالية مفاتيحه وآخر نميمة قذفت فى أذنيه قبل الرحيل ..

فى سيارة التاكسى المنطلقة .. كانت عيونى معلقة على الزجاج الأمامى والطريق المنبسط والرصيف الموازى لسور حديقة الحيوان والأشجار الخضراء العالية والبنايات التى تقترب مع كل متر تقطعه عجلات السيارة .. سقط سائل لزج القرش فى رقعة متسعة زجاج السيارة ، اهتز جسدى من المفاجأة بينما ارتج السائق على المقعد .. كان طائر من الطيور التى تحتل أشجار شارع مراد قد أسقط بوله اللزج الأبيض على السيارة وانطلق ..

تسلمنى فهمى شاكر فى الأيام الأولى لمعرفتنا حين قدومى للمجلة بشىء من البشاشة المصطنعة لحد أنك لا تدرك أين صُنعت ؟ !

ومن البديهى أن تمتد بيننا الجسور على مهل .. فقد كانت قطعة زجاج مكسور تقف تحت قدمى عند الذهاب إلى مكتبه .. ساعتها لم يكن قد تولى منصب مدير التحرير .. وكانت صراعاته مع فريق من المحررين المتكتلين ضده فى المجلة قد بدت واضحة لى تماماً مع مزيد من تعاقب التعليقات الشارحة للكلمات الغامضة والمرادفات الساقطة من نسخ الكربون المكررة ..

مغفلا باقتراب مراهق ..

ومتورطا بانحياز صلب ..

وجدت نفسى فى صف فهمى شاكر ..

ضوء ناعم مسحوب من مصباح كهربى على هيئة نافورة غطى مساحة عتمة مخففة فى زاوية الحجرة وظهر فهمى جالسا على مقعد خشبى راح يمد ساقيه فى بساطة متفوقة الإجادة .. وشريط تسجيل يقدم موسيقى هادئة على طبق من الصفاء الصوتى الدقيق .. وأنا أجلس على حافة أريكة قصيرة أنامت بطن فخذى على الأرض ..

خريـــش صوت طفلته المنطلق من غرفة النوم الهـدوء .. لكنه استعاد بطولته ..

تقدمت أصـــابعه إلى كوب الشاى الساخن ، احتوته ورفعته إلى فمه .. ارتشف جرعة .. عاد بعدها إلى تلاوة قصيرة لمحذوف حياته المعلنة .

قام عن المقعد .. فى محاولة متعثرة لتمالك زمام الحكاية .. اقتطف من طلاء الزنزانة ومسوح القضبان وأردية المحامين السوداء مقتطفا أوليا ، فرد صوراً فوتوغرافية أبيض وأسود على المائدة الرخامية الصغيرة بيننا ، كانت صورة لقفص الاتهام بمحاكمات التنظيم السرى الشهيرة وضع إصبعه على وقوفه فى القفص .. زائغ النظرة لحية كثة (اختفت الآن) .. رأس حليقة .. أخذ يعدد أسماء

الواقفين بجواره ، بعضهم معروف لى – مثقفين ونقاداً – لا يزالون أحياء فوق الورق (فقط) . أرطال من الكلمات المتناثرة عن ليل المساجين .. وملفات القضية الثقيلة وجلسات المحاكمة التي استمرت ستة شهور وهزت مصر .. فتح درجاً سفليا فى مكتب صغير فى زاوية الحجرة وأخرج لفافة من الصحف ، وضعها على المائدة بعد أن جمع الصور فوق ركن بالأريكة ، الصحف نيلت بصفار ظاهر بفعل القدم وقد وضع خطوطاً تحت اسمه الثلاثى أمامه وظيفة عاطل .. أوضح :

– كنت مفصولاً من المجلة وقتها وأوقفوا صرف مرتبى طبعاً وكان على فريدة زوجتى أن تعيش مع خالها آخر من تبقى من أسرتها حتى يمكن أن تستمر الحياة .. وعندما خرجت بحكم براءة لم يسمح أحد بعودتى إلى المجلة أقمت دعوى قضائية فى نفس الوقت صدر كتابى مصر هزائم وانتصارات .

نهض مرة أخرى .. عبثت عيناه فى أرفف المكتبة الممتدة ، قلب بأصابع مهتزة صفين من الكتب .. رفع رأسه بين كتابين . ثم أخرج واحداً منهما ، قدمه لى، تناولته بيد متلهفة .. كتيب صغير فى حجم كف محمد الطحان الغليظة .. أوراقه صفراء ، وطباعته نصف حديثة وكانت بعض صفحاته مغلقة فى حاجة إلى فتاحة .. استخدمت قلمى وفصلت الورقتين المتشابكتين .. فسقطت الأسطر المطبوعة على حجرى .

كأن فهمى شاكر قد قرر أن يدير ظهره كاملاً لتاريخه ذلك الذى يقدمه مع وجبة الغداء دعوة لى من أجل التعاطف أو الصداقة .. وربما التحالف معه .. لم أكن أدرك أن الرجل يتوقع أننى قد أصبح خلال شهور أحد مسئولى المجلة وكان عليه أن يضمنى لموقعه عملاً بخطة مدبرة لامتلاك قبضة واسعة وحاكمة على عنق المجلة كلها .. يعلن بصراحة رأيه فى المجلة والصحفيين ورئيس التحرير .. ويقدم مشروعا طموحا لتغيير مناطق كثيرة فى الجسد المترهل بتقوية سياسة ومبدئية – نسبة إلى المبادىء – التزم فهمى شاكر بتعريض زاوية وحيدة فقط من وجهه لى بينما لم يستتر وجهه كاملاً – ولا أنا ذهبت إلى الناحية الأخرى لأرى زاويته المغايرة – ومن ثم كان حذاء عسكرى ثقيل ينغرس فى لحمى حينما بدأ

فهمى يمتلك رضاء صادق رئيس التحرير عليه ، لقد وضع نفسه فى منطقة أقرب ما تكون إلى مقدمة حذائه .

لم أمنع نفسى من أن أسبه يوما أمام عمر السبكى قلت له إن فهمى شاكر ماسح أحذية الملك .. ضحك عمر وأكمل - بلسانه ..

صدمنى التشبيه رغم أنه من اختراعى فآثرت الصمت .. بينما أصبح فهمى وزيراً نابها لملكه ..

(٣)

رجل من أقصى المدينة

على الروح أن تجد الروح فى روحها
أو تمـوت هنا .

أسعد الله مساءك ياعمر .. الوجه الأبيض النحيف والجسد الرياضى المشوق الذى أصابه فى الأيام الأخيرة قبل سفره ترهل مستتر .. ابتسامته الموضوعة دائما تحت درجة حرارة معينة لا يجوز أن تتجاوزها نظراته الواثقة النابهة .. دفتر أرقام الهواتف الصغير الذى يضعه دائماً مع ميدالية مفاتيحه .. صورته فى بطاقته الجامعية القديمة ، انطلاق السيارة فى طريقها للصعود نحو المقطم . ارتقاء صخرة تطل على القاهرة فى ليلها المتفرد .. جلسنا ناظرين إلى كل هذه البنايات التى تصغر وتشتد قزامتها كلما ابتعدنا .. تسلقنا مكانا علوياً .

- هل ترى ياعمر .. كل ما تستطيع أن تراه هنا من القاهرة أنوار المآذن والإعلانات الضوئية لكن تخيل اللون الأخضر للمآذن يكاد يلف القاهرة كلها يجعل سماء ها خضاراً مرسوما بكلمة الله . !

يبدو عمر كأنه قد ألقى بنفسه فى هوة حلب هذا الاكتشاف .. يمسك حصوات صغيرة من أرض المقطم . ويقترب من حافة الجبل .. ثم يلتفت لى وهو يجر الحوار كله نحو السياسة .. عمر أول من أمسك يدى وكسر الباب ليدخلنى .. شابا كعود الجرجير الذى لا يقاوم أصابع سيدة ، قررت أن تقدمه لزوجها ، ظهراً كنت أمام المدينة .. ظهر عمر - فالتقطنى - كنا معاً نكره تعبير جندنى - فعل ما تمليه عليه قواعد النضال الصارمة التى لم يكسرها أبداً .. وجد فىّ خامة تصلح

للإنضمام لكنه فى حمية الاقترابات الضرورية للتجنيد السياسي أحبنى ، بدأها هكذا بأنه يتفاءل بى .. لكنه .. دون حاجة ليؤكد بعد ذلك.. وقع فى شرك صداقتى ومع ذلك لم يفلت من حبائل السياسة التى وجهت ثلاثة أرباع تصرفاته معى .. كان يدفع بعنف تجاه احتلالى لموقع داخل النادى السياسى الذى عاش ست سنوات من عمره يبنى فيه داخل الجامعة .. ورغم حصار اللامبالاة وانطباق كل الصراعات خارج أسوار الجامعة على عظمه إلا أنه استمر، لازلت أنكر أول منشور قرأته له «مستمرون رغم الحصار» .. البناء داخل الوطن يعنى حالة تحد لكل مفردات العجز عندما تكون جملة مفيدة (هى العجز أيضا) .. أما بناء تنظيم سياسى .. حتى ولو كان طلابيا فهو انتحار على الطريقة اليابانية حين إعلان الهزيمة .

ولم أكن أدرك أن عمر يخلى الشوارع أمامى كى يصل موكبى لنفس موقعه داخل تنظيمه المحدود المتماسك .. ليالى الاجتماعات الصغيرة فى حجرة مكتبه .. المكوث فى سيارته لساعات طويلة ، النقاش والجدل ، جلسات حديقة الجامعة والساعة تدق فوق الأدمغة .. محادثات الهاتف حين يرمى بكلمات مبتعدة خشية مراقبته ، سماعنا للقبض على زملاء كانوا حتى ليلة أمس يتعشون فى منزله . سفرنا إلى القناطر مع المجموعة كلها ، هم فى الأتوبيس النهرى وأنا معه فى سيارته.. جدله الذى لا ينتهى حتى أتخلى عن ممارسة السياسة مثل الموظفين ، أنت يا ابنى تعمل وكأنك معين على درجة وظيفية ولست مرشحا من قبل الناس والمفترض أنك تمارس عملاً نضالياً لا يعطله تعجلك للذهاب لموعد القطار حتى لا تتأخر عن الغداء مع عائلتك ..

كان الدخان يملأ فضاء الشقة كلها .. السجائر فى الأفواه .. بين الأسنان.. فى حضن الأصابع .. على حافة المطفأة المكتظة بالأعقاب المدهوسة .. التبغ المحترق ملقى على السجادة الوحيدة .. سطح المائدة .. مساند الأريكة .. كل هذا .. وأنا وعمر لا ندخن ..

ضاقت أنفاسنا لكنه كان منشغلاً بالتحكم فى نتائج هذه الجلسة التاريخية.. أول اجتماع للنادى السياسى لأجل انتخاب رئيس بعده .. رشحنى عمر بينما ظهر مرشح أخر لم يكن راضياً عنه .. ابتسم وهو يغلق باب سيارته ملتفتا حوله للاطمئنان على عدم مطاردة المباحث .

– خالد هذا لا يصلح حتى عضواً بالنادى وليس رئيساً ، أمسك بكفى نعبر الشارع..

– لقد تحدثت معهم جميعاً .. المشكلة أن بعضهم لا يعرفك والمهم كيفية إدارة الجلسة للوصول إلى الاحتمال الوحيد .. فوزك بالمنصب ..

وفى حزن حقيقى ولهث أقدام متوترة ..

– هذه أول مرة أكون فيها منحازاً وديكتاتوراً إلى هذا الحد ..

توقفت عن السير فى ممر العمارة الشاهقة ذات المداخل الثلاثة.. لاحظ البوابون وقوفى غاضبا لكننى تسمرت :

– عمر .. لقد قلت لك ألف مرة .. لا داعى لى فى هذا المنصب .. أنا أعرف نفسى .. لازلت ثمرة خضراء لماذا تصر على قطفها مبكراً ..

جذبنى بعنف رقيق :

– أولا .. لا تخالف تعليمات الأمن التى اتفقنا عليها .

ثانيا .. وهذا هو الأهم .. أنا أحبك جداً .. هذا شىء واضح أما أنك أصلح واحد لرئاسة النادى الآن فهذا شىء مؤكد .. لاحظ أننى الذى تعذبت لإعادة بناء هذه المؤسسة ولا أريد تسليمها إلا لك .

فاهم.

اكتمل النصاب القانونى فى هذا المكان الذى حصل عليه عمر بالعافية .. اتفق مع صديقه صاحب الشقة على الانتهاء من الاجتماع الساعة العاشرة .. ولن يسمح بتجاوز الوعد . جلس بيننا وسط نحيب سياسى موجع واقتراحات

ومشروعات وصراخ .. وسجائر لعينة دفعتنى إلى الابتعاد عن الصالة والذهاب إلى الشرفة المغلقة بالزجاج .. وقفت أمام ميدان رمسيس الذى تطل عليه .. زحامه وخناقه وناسه .. وابتسمت بينى وبين تمثال رمسيس .

– خمس دقائق من هذا المكان إلى موقف أحمد حلمى لأكون بعد ساعة فى صالة منزلنا .. لا سجائر .. لا سياسة .. لا صراخ .. فقط أمى فى الشرفة وأبى يقرأ الصحيفة ويسمع اذاعة لندن . التفتُ إلى عمر بادلنى النظرات الآمرة بالعودة إلى الجلسة ، فعدت ..

بدأ الاقتراع وهو فى أقصى حالات التوتر رغم قدرته على ضبط مشاعره وتسييس تصرفاته إلا أنه اندفع فى تهنئتى عند فوزى بالمنصب بفارق صوت واحد – عانقنى .. ثم انشغل فى مئات الأشياء الصغيرة .. التعليمات الخاصة بالتشكيلات الجديدة ..

توزيع الأدوار .. تحديد الخطوات القادمة .. موعد البيان الأول ولجنة الصياغة..

وفى كل هذا الزحام وجدتنى أمامه فجأة .. ابتسم ولم يقل كلمة واحدة .

حينما خرجنا فى المظاهرة الأولى التى تشهدها جامعة القاهرة منذ ١٩٧٧ .. كانت أشياء كثيرة تتغير فى السماء .. طعم الدنيا .. حلاوة الحياة .. هدير القلوب والحناجر ..

اندفعنا ، آلاف من الطلبة ، كنت فخوراً بهم .. متحمساً للاستمرار اللانهائى .. وفى حين كان دورنا التنظيمى أقل الأدوار فى هذه المظاهرة إلا أننا – على الأقل – شاركنا فى التمهيد ثم فى الفعل ودعمه وذاب الجميع حولى .. واكتشفت أننى أسير وحيداً مع وجوه لا أعرفها لكن مزاملة المظاهرات جمعتنا على قلب واحد .. امتدت أجسادنا تزيح بوابة الجامعة الخضراء وصرنا – مرة واحدة – فى الميدان . علت الصيحات واشتد الهتاف وانخرطنا فى جنون كامل ...

لكن آلاف الجنود من قوات الأمن المركزى نجحت فى التحليق على

المظاهرة تمكنت من سد جميع المنافذ المؤدية إلى مبنى سفارة إسرائيل ، أو إلى ميدان الجيزة أو الدقى ..

حوصرنا أمام الجامعة .. وقد وقفت صفوف الأمن المركزى كالحوائط العاتية الجهمة بالخوذات الثقيلة والهراوات الغليظة وأوامر الضباط تنهال على ظهور الجنود .. اقتربنا تماما من وجوههم ..

صرنا .. متواجهين عينا لسد .. فماً لحائط .. صراخاً لموت ، ظهر أحد زملاء النادى ووضع فى كفى المنشور الذى أعددناه مطبوعاً فى ألف نسخة .. ثم اختفى فى الزحام ..

بحثت عن أحد يشاركنى توزيع المنشورات .. فلم أجد .. وسط هذا الصخب .. نازعتنى مشاعر شتى .. لكن بمجرد أن رفعت ورقة أقدمها لأحد المتظاهرين .. تكالبوا جميعاً علىّ .. وامتدت أياديهم تأخذ فى لهفة المنشور .. تتبادله وتقرأ بعض سطوره ..

جمعنى حوار قصير مع شابة محجبة سألتنى عن نسخة منشور لكننى لم أجد شيئاً فى يدى .. نبهتنى فجأة أن الأمن يقترب ..

سمعت هدير الجنود وصيحة الاستعداد .. أخذنا نجرى تجاه ميدان الجيزة طغى هرج فادح وأفسح الجنود لنا - طبقاً لأوامر ضباطهم - شارع الجامعة أطلقوا قنابل مسيلة للدموع ، فتساقط حولى البعض ..

التفت مخنوقاً .. فوجدت فتـــاة تسقط على الجزيرة بين اتجــاهى الشارع وفتى يرفعهـا من ذراعيها وهو يهتف - هل أصبت .. أسرعى .. إنهم .. إنهم وراءنا .. تخاطفتنى الأقدام نحو مدخل عمارة أغلقنا بابها بإحكام وكلنا نبكى دموعا أثارتها أدخنة القنابل ..

كنت مع عدد قليل من المظاهرة التى ذابت تماماً .. قد لذنا بهذا المكان ، استدارت عيونى فتعجبت أنها العمارة التى تقع فيها شقة عمر.. جلست على درجات السلم والبواب العجوز يسأل الفتاة .. لماذا تفعلون ذلك ؟

ظل يلهث معى لأجل الاستمرار في هذا المشروع الذى كانت تفتك بأحلامه فى دعمه وتقويته عواصف الأمن والخلافات .. وكان دائما ما يظل صاحب المعدن الفولاذى . الفتى الذى لا يكذب أبداً والرجل الذى يؤمن بأخلاقيات ملتزمة كاملة .. لا نساء ولا خمر ولا تهاون ولا تراجع ولا ضعف ولا كلل ولا ملل ولا توقف .

ترتفع مشاجرتنا فى سيارته أو فى غرفة مكتبه تلك التى تعيد لى أبطال الأربعينيات من المناضلين الشبان أصحاب المركز الاجتماعى والطبقى المرموق الذين اختاروا السعى نحو فكرة يعتنقونها ضد تيار المحافظـة والعائلة والنظام بأسره .. كان عمر واحداً من هؤلاء المنزوعين من كتب التاريخ (التى ستدون فيما هو لاحق) وألصقت على جدار هذا الزمن ، كان ناصعاً جداً بيننا جميعاً .. وحتى أحد من أعدائه فى ظل أزمات الخلافات المتكررة لم يستطع أن يمسه بسوء .. عمر تنغص عليه حادثة تافهة يمكن ألا تجعله ينام الليل كله لأجلها وفى الصباح قد يذهب ليعتذر - إن اعتقد خطأه - أو يصفى الموقف فورا مع الطرف الآخر .. وفى كل الأحيان - وما أكثرها - كنت أنا أمين سره والأذن التى يلجأ إليها كى تسمع والعقل الذى يريده - وحده - كى يُشير عليه وكما كنت أستطيع أن أؤثر على بعض خطواته .. كان يؤثر على خطواتى وأقدامى ويدى ومساحات الأمتار المربعة التى أمر عليها صباحاً .

حنوناً كان .. وصبورا ووفياً .. وعاقلاً ومنطقياً .. وأخلاقياً وفيروزياً حتى النخاع بعد عودته من سفر فرنسى طال ، صار عاشقاً لأم كلثوم .. محبا لآهاتها، معذباً بشجنها الأسر .

تشتعل شرائط التسجيل فى السيارة بأغانى فيروز .. فيتولى ترجمة اللهجة اللبنانية بدقة مدهشة ثم يواصل شرح خريطة بيروت وكأنه يراها أمام عينيه .. الأحياء والشوارع ومقار المنظمات التجارية وأمكنة الصحف والمجلات .. رغم أنه لم يذهب لبيروت على الإطلاق .. لكنه - بعد استماع مضن لمونت كارلو واندماج لا

نهائى مع أحداث بيروت كلها - كان إذا ما حاول تغيير لهجته .. لبنانيا حتى النهاية.

- لم أعد أحتمل .

دخلت عليه غرفته وهو منشغل فى كتابة أحد البحوث ، كانت الظهيرة عند عمر كافية لسحبي من الغربة والعزلة .. الغداء عنده .. ومكوث العصر والمغرب .. والخروج ليلا للحياة ..

المثوى والملاذ والقلب الحنون .. لم يعتزل العمل التنظيمى لكنه تفرغ قليلاً لأمور البحث والكتابة .. وصلاته ظلت قوية بما يحدث ..

صرخت حاداً لكنه تلقانى هادئاً وديعاً مندهشاً بابتسامته الطيبة واحتوائه الراقى.

- ماذا حدث ؟

- لن يفعلوا شيئاً .. إن فريقاً سياسياً هذا سلوكه وتلك تصرفاته لن يقدم للبلد شيئاً .. لن ينجز للوطن بمليم .. إنهم ستون مجموعة تنشق لتصبح مثل الخلايا ١٢٠ مجموعة أخرى .. لقد تصارعنا فى المقر على حق الترشيح والانتخاب المباشر للأمانة .. لكنهم رفضوا تخيل .. أى ديمقراطية يدافعون عنها .. لقد أصر رئيسهم على تعيين أعضاء الأمانة بنفسه .. وتنكر الجميع لاقتراح الانتخاب .. لقد حاصرونى فى غرفة ضيقة ليقنعونى بالعدول عن هذه الفكرة ..

ثم صرخ فىّ أحدهم .

- لقد جننتنا ياأخى .. أنت تعمل لحساب من ؟

لقد اكتشفت أن الذين أيدوا فكرة الانتخاب فى الاجتماعات معنا عادوا فرفضوها حينما جلسوا مع أنفسهم .. لقد سمعوا عن توزيع المقاعد بالتناسب لقوة كل مجموعة منهم .. فسكتوا ..

كان عمر يهتم بكل تفاصيلى ويحنو على مفرداتى الغاضبة ويهدىء روعى ويشد عضدى ويفتح لى آفاق الأمل فى التغيير لكننى أطلقت آملى فيه :

- سأتركهم يا عمر ..

فأجاب فى رزانة :

- افعل الشىء الذى تحبه وترضاه .. لقد ضغطت عليك مرة واحدة ولن أفعلها ثانية .. لكن تتكر قبل أية خطوة أنك تؤدى دوراً نبيلاً حين تكون هذا الضمير الشاب المستيقظ لما يفعلونه بأنفسهم وبالحركة والناس ..

- ولكنك كنت الضمير الأوعى والأكبر والأنظف والأطهر .. ولم يسمعوك .. كم مرة وقفت بينهم وحلت بين صراعاتهم وصالحت خصوماتهم على أمل أن شيئاً سيتغير .. ولم يحدث شىء .. أليس كذلك .

عندما تركته يومها .. كان جو الشقة التى عرفتها وأحببتها مختلفاً .. وكان وجه أمه الشامخة ملوناً بالهزيمة .. والظلال تتغلغل فى قطع الأثاث ، البيانو فى مدخل الشقة .. والنافذة مغلقة تحجب الأشجار والسماء ورأس الهرم الأكبر من العيون .. والهاتف صامت على غير عادته والتليفزيون معطوب فى انتظار عودة أخيه كى يصلحه - كما اعتاد - وكانت الدموع قد أغرقت عينى .. وهو يمسك بكتفى متأثراً كما لم أره من قبل .. كان سفره إلى باريس يقطعنى تماماً نصلاً مرعباً يشطر عنق الحمامة فتفر من أصابع أمى إلى الأرض وقد تلوثت أجنحتها بالدم المنساب .. دموعنا ساخنة وقد يئست من تراجعه عن قرار السفر بعد أن هزمته السنوات وأمطرته الأحداث بإحباط أنبت لحيته حينا - تمت تسوية الأمور كلها فى رأسه وفى جواز السفر ..

- للدراسة .. للغة .. للحياة .. لباريس .. للعمر الذى ذهب سدى للحلم لعله يجىء .. فقط يجىء لا أقول يتحقق ..

انغلق باب المصعد .. ولمحته فى بكائى يبكى ..

(٤)

انشطار الأنشدة

سقط القناع عن القناع عن القناع
لا إخوة لك يا أخى
لا أصدقاء
ياصديقى .. لا قلاع

دخل فهمى شاكر طلب أن أكف عن الكتابة .. وأتى إليه فى مكتبه .. وجهه بشوش سعيد فى طفولة متأخرة .. كان المقعد فوق رأسه وبانت قوائمه المعدنية على كتفيه ..

– هل عرفت ؟ لقد قال لى صادق .. أنت صاحب يد مطلقة فى العمل داخل المجلة .. وهذه مهمتك يا بطل .. كلف الناس وتابع الشغل وعاقب أيضاً

– والله العظيم ؟! .

– نعم .. منذ دقائق .. واضح أنه غاضب على الطحان وفتحى هذه الأيام ، حاول أن يقضم إحساسه بالفرحة

– والله أنت لا تستطيع أن تأمن له أبداً ، ويجب أن تكون له مصلحة مباشرة من أجل أن يضع يدك كلها فى المجلة ويقول لك افعل ما تريد ، هو يعلم أن الآخرين ليسوا أصحاب كفاءة تؤهلهم لإدارة العمل ومع ذلك لا يمكن أن يلقى بهم بدون سبب ..

ولكن ما رأيك أنت ؟

هل ندعى البطولة ؟ لقد قلت :

- رائع عظيم .. أطلق يدك واضربهم جميعاً !

تراخت أصابع لاعب العرائس فوق الحاجز .. فسقطت الدمية على خشبة المسرح .. واهتزت الدمى فى الأيدى المجاورة .. انفكت رأس الدمية عن جسدها .. فضج المتفرجون بضحك مفرقع ..

وجه فهمى شاكر حين يدخل عليه - أو له - صادق يصبح أملس يسهل عليه تزحلق المشاعر من الانسحاب إلى السكينة حتى تمتزج بالاستسلام ، حواجب ترتعش نحو الانضمام لإجادة التمثيل بالاهتمام .. حيث إن الاهتمام فى عرف ديك مجلتنا .. شىء مرتبط برأس الديك تماماً .. إذا استطاع أن يثبت نكورته أو ديكته يقف ويؤدى دوره كاملاً من الحفاوة بفكرة رئيس التحرير إلى تحبيذ جدتها إلى استعراض النماذج المؤيدة من الحياة والمواقف (التى غالباً ما تكون درامية) إلى تقديمها على طبق من أفخاذ الدجاج لديك آخر !

أملس جداً فهمى شاكر ..

جلده ناعم منبسط كأن الحفائر الموجودة فى وجهه التى هى عينان وشفتان ومنخران وأذنان ما هى إلا قنوات كى يصب فيها صادق كل ما يريد .. يصب فيها أوامره المدهونة بثقة وسلطة وهو يدرك تماماً أن أمامه رجلا مطيعا يؤمن على ما يقول ويضع نقاط نهاية الفقرات عند توقف كلامه .

- صحيح .

- هذا حقيقى .

تتردد الكلمات من سنتيه البارزتين إلى مساحة الفصل بينه وبين صادق .. حينما يقدم له المقال الافتتاحى كى يقرأه فى انتظار أن يسمع كلمات الإطراء ..

- صادق لم يعد يقتنع أنه يمكن أن يخطىء .. لا يريد أن يسمع إلا كلمات التأييد ..

- إذن تقدمها له .. تفعل ما تريد .. أنا - وأنا صغير السن والخبرة والحياة - أحكى وأناقش وأنتقد ولا أصمت فلماذا لا تتكلم أنت وتناقشه وترفضه أيضاً .

- وتفتكر هل سيسمع ؟ خلاص أنناه لم تعد قابلة لهذه المناقشات لم يعد يطيق المناقشة .

- وهل معنى ذلك أن تطيعه ؟

- ياابنى لا فائدة .

- خلاص لا تضع فى قلبك وتسكت .. هذا أضعف الإيمان .. إذا كنت تعرف أن شيئاً لن يتغير وأنه كرئيس تحرير سيفعل ما يريد فليس أقل من أن تناقش وتقول رأيك حتى لا تطق .

- أبداً .. العكس وأنت لم تلبث أن قلتها أنك قليل الخبرة .. .. ساعتها تسمع وتفعل وتربط الحمار فى مكان ما يريد صاحبه .

- موافق .. فقط ألا نتحول إلى هذا الحمار الذى يربطه صاحبه . أفزعت الجملة فهمى شاكر وأحس أن نصلاً خمش عنقه .. أشبه بجرح حلاقة الذقن لحظة توتر مفاجىء .. لم يفعل - كعادته حين يتلقى هجوما مباغتا - إلا أن سكت ، ضغط على جرح الحلاقة الصغير وكتم الدم بسبابته .

كانت السيارة محكمة الإغلاق .. نوافذها الزجاجية معطوبة .. مما جعل مرور الهواء إلى أنفى خرافة .. الهواء صغير وثقيل يشفط الوجود كله ..

إشارة المرور حمراء .. السيارات جامدة فى طوابير غير منتظمة مكدسة مدفونة فى زحام أبدى .. حولت بشرتى إلى سطح من العرق المختلط بالغبار فبانت طبقة غليظة تطبق على عيونى .. ضيق النفس يدفعنى إلى الجنون .. توقف السيارة الأجرة يفرز قلقا مرعباً فى جوفى .. حاولت الخروج لكن الأبواب المعطوبة أفشلت قدرتى وكتمت حريتى .. التفت لى السائق وتقدم بعيون جاحظة وعرق يقطر وحواجب كثيفة وبشرة مرسومة على لوحات الكهرباء ، أصابعه يلفها حول عنقى .

- كف عن القلق وإلا قتلتك والله العظيم ..

انفتح الباب بدفع كتفي المترنح .. وجدت نفسي في شارع قصر العيني طليقاً فوق الرصيف ناجياً من موتة مفاجئة ورعب مؤقت كأنه لسع سلك كهرباء عار أبهتني لحظة ثم نسيته ونسيني .

كانت الوجوه التي تعبر الشارع جيئة وذهاباً .. قد حفرت مسافات أقدامها على الهواء .. وكنت أسائل نفسي .

- إذن كم مرة عبرت هذا الشارع .. كم خطوة من قدمي فوق هذا الرصيف ، تلك المساحة ، هذه المسافة ، أمام هذه العمارة أو الأخرى .. جنب هذا المطعم .. أو بجوار الشجرة الخضراء .. كم مرة قرأت إعلاناً انتخابياً قديماً منسياً على الجدار . كم مرة يسير الإنسان في شارع قصر العيني وهو يدرك أنه لم يعد يدرك كم مرة قد سار .. ما الذي يأتي بنا إلى هنا .. أو هناك ما هذه القوة الجبروتية التي واتتها الفرصة كي تعلمنا كيف نتعامل مع أحجار الرصيف التي عانت من معاناتنا ، أو اندهشت لفرحتنا أو شاركتنا لقمة الفول والطعمية ..

هل يحفظ الرصيف أسماءنا .. ؟

هل سجل الشارع ضحكتي المتفجرة وأحزاني المنفجرة .. ؟

ماذا يقول الشارع لفهمي شاكر يهبط من المجلة إلى ساحة الانتظار المفروشة بالسيارات ، يحتل مدخلها برميلان يتشكلان بالخضار الداكن .. وكشك خشبي صغير منزو .. ورجل يصافح العيون والأيدي لحظة المرور .. وقطة نائمة أسفل غطاء سيارة متدلٍّ بظله .. وأوراق مبعثرة في الزوايا .. وصنبور مياه لمبنى مجاور يقذف بكل قواه فيغطي أرض الانتظار بالبلل المفترس .. وعلامات المياه والفطريات المكونة تكسو عمود جدار أسمنتي .. والشارات فوق الزجاج الأمامي للسيارات .. وفهمي شاكر يفتح سيارته من بابها الخلفي يضع مجلاته وأوراقه ، ثم يجلس في مقعد القيادة .. يلتفت للخلف يدير المفتاح .. تئن السيارة يضع ذراعه على المقعد المجاور .. يحاول أن يعود بالسيارة للوراء قليلاً .. ثم يصلح من

اعتدال الاتجاه .. ثم يدوس البنزين نحو اليسار يتجه .ثم يعود مرة أخرى لنفس المكان باختلاف سنتيمترات تكفى للانطلاق ثانية .. يعتدل تماماً .. يخرج من طوابير السيارات .. يعبر حاجز البراميل .. يدخل يساراً ليضع صفراً جوار الصفر فى خانة السيارات المنطلقة فى الشارع .

ماذا يقول الشارع لفهمى شاكر؟

جئت .. وجلست وصعدت .. ومكثت .. ورفعت .. وتحكمت .. وتدللت .. وضحكت .. وركبت .. وتأمرت .. وكتبت وقلت وتقوات ورحت وجئت ...

ثم ذهبت .. !!

ضحكته رفيعة تنتهى بذيل نسوى .. يمسح طبقة شمع أدوات التجميل من وجهه .. فيظهر ..

يجالس محمد الطحان على مقعدين متقابلين .. وجهه مفروش - كالطرق الرملية - بالمودة - تتزرع فيها زروع للعلامات ليس إلا - ويبدو كأنه عشيق قديم.. تختبىء كلماته عند إبط الطحان .. ذلقة .. رقيقة .. طيبة ..

- ولماذا يا محمد .. كان ممكن تشتريها بسعر أقل .. على العموم أنا أعرف واحداً قريب زوجتى ممكن يوفر لك أكثر من النصف .. لا .. حرام .

يجند فهمى ملامحه لمصلحة .. يدهن ضحكته بطبقة عازلة تجعل من السهل أن تستقبل تهكما .. أو سخرية .. أو جداً دون أن تلتصق .. يستجيب الطحان فى فورة حماس مزيفة .

- طيب يافهمى إلحقنى به .. الواحد يوفر قرشين خارجين من لحمه الحى .

لحمه مكتنز كأنه حشو إصبع باذنجان طقت جوانبه من غزارة الأرز .. كان الطحان جهماً مستور الضعف بالعنف .. مندفعا هائجاً إذا ما غضب .. مطحونا إذا ما انهزم .. لئيما فى انفضاح تنتهى محاولته لإخفاء التآمر عند المنتصف ، فيسقط كل شىء فيصمت ويلف عورته بورقة صفراء دون أن تخذله الضحكات المجلجلة .

أقـام فهمي جسر الحوار المتحمس معه في سابقة جديدة لكليهما .. لهجة الود تتقافز فوق الحروف الممسوحة بأنوثة فهمي والمغلفة بحيوانية الطحان ..

- الطحان إما مدفوع من المباحث للقيام بدور محدد داخل المجلة وخارجها أو أن صادق يضعه فوق صدورنا مستغلاً اندفاعه في القيام بأدوار ضرب كل من يفكر في التمرد أو الاعتراض . يعني ببساطة شوكة مغروسة في الحلق .. إن صرخت توجعك وإن سكت توجعك .. والدم في الحالتين يسيل .

هذا كلام فهمي .

وهذا كلامه أيضاً .

- شوف ياطحان .. إذا كنت في حاجة لصفحات أخرى في العدد خذها .. والله أنا طول عمرى أقرأ لك وأعتز بأسلوبك تحس إن فيه شيئاً لامعاً .. وحماسك واضح فيه تماماً .

- ياأخي أحيانا الواحد يكون في حاجة للكتابة ، ولكن الاحباط يأكله .

- طبعا أنت طول عمرك ترى الاعيب ومؤامرات وجسمك شاف ضربا موجعا وهذا ضريبة نجاحك .. ولذلك أنا لا أغضب من شكك فيّ وعدم تصديقك لإخلاصي.

كأن فهمي لا يستطيع أن يستر عريه قليلا .

لماذا يحكم رابطة عنقه أمامي بينما أراه عاريا تماما .. ما أقبح الأجساد العارية إذا تعرت دون أن تدرى .

تشابكت بين يوم وليلة مصالح فهمي والطحان .. واندلق السمن على العسل في طبق صادق .. وتقاربت جزر باتت من البعد إلى الحد الذى لا تقترب حتى للنظر .

كيف كانت جبهته يوما تنضح عرقا غزيرا .. فهمي يمسحه بمنديل قماش أبيض مطوى .. في تردد وارتباك يوقف السيارة في ظهيرة محمية .

كان مبتئسا قد عصف به الطحان فى اجتماع صباحى ..

- أنت متآمر .. تخبط الناس فى بعض كي تكسب وحدك ، لمصلحة من تطعن فى رئيس التحرير كل ساعة وتبث شائعات أنك تدير المجلة وحدك .. وممكن يافهمى بك تقولنا لماذا اتصلت بمهدى عبد الفتاح مدير مباحث الصحافة الأسبوع الفائت.

هاج الطحان مدمدما وأخذ كمصارعى حلبات المصارعة الحرة يدورون ويلفون ويخبطون الأرض بأقدامهم ويلوحون للجماهير ويفتحون أفواههم .. ويجذبون الحبال .. ويعودون إلى المنافس المهزوز .. فيطلقون لكماتهم فى فمه - فيسقط مستسلما ، فيرفعونه بأكفهم ويضربونه فى بطنه ، فيسقط ، فيرمون بأجسادهم الضخمة وجثثهم المتوحشة فوق صدره فيعد الحكم ..

- فقط توقف واهدأ قليلا ياطحان . أنا هنا رئيس التحرير وكل ما يقال ويتردد أعرفه قبل ما يخرج من الغرفة التي يتحدث فيها أحدكم .. وأنا أعرف جيدا ماذا يقال عن فهمي وأنه يتآمر عليّ ويطمع فى رئاسة التحرير وأن الناس متذمرة منه . كل هذا أسمعه جيدا ياطحان وليس هناك داعٍ لترديده فى مكتبى.. لكننى أقول لك وللآخرين فهمى رجلى الأول وذراعى اليمنى لازم تعتذر له ياطحان .

انفجرت ملامح الطحان بالتمثيل .. وهو يدير مفتاح الصوت نحو الانخفاض فى مذياعه .

- أنا لم أكن أقصد ياأستاذ صادق ، انت عارف أنك تُضرب حين يضربونني .. يضربون فيك عن طريقي ياأستاذ صادق وأنت تعرف .. يحاولون كسر رجلك ومساعدك والمخلص لك .. أنا آه والله .. (لهجته تتحول إلى تمنى أن يقربه صوته إلى إلهه زلفى) - أنا رجلك ورجل الرجل الذى تختاره مساعدا .. وأنت تعرف قبل الجميع أن الذى فى قلبى على لسانى .. ولذلك أنا أعتذر لك بالفهمى .

قام من مقعده بصعوبة جسده الفيلى ..

اقترب من فهمي كي يحضنه .

استقبله فهمي بابتسامة متسعة :

- ولا يهمك ياطحان .

- تمثيلية .. اعتقد أنها كانت كذلك بتعبير من صادق نفسه ، كانت رســالة منه كي أعرف أنه لن يســمح بتجاوزي الدور الذي رسمه لي .

- لكن يا أستاذ فهمي ألم تفكر وسط كل هذه الضجة العفنة أن تكف عن العمل معهم وتتفرغ لإنجاز كتبك .

هز رأسه .. فكرت ..

لهذا أكره اليقظة فجأة .

أصحو .. فكأن الدنيا مغلفة بالضباب حولي . مغلفة بالوهم أمامي .. كان الريق جاف جداً عود ممصوص من التعب - يشدني ويشدني نحو صمت مندهش .. لهذا أكره اليقظة فجأة ..

وكرهت هذا اليوم كله .. بزوايا الضوء الساقط من عند الشمس، بانفراجات القمر المسافر من لدن السماء .. بهذه الممرات التي تشق معدة المجلة تقودني إلي الخلاء في صحراء لا تنتهي ورمال لا ترحل وزروع صبار مخلدة .. دخلت إلي فهمي شاكر عند المكتب .. توقفت ووضعت أوراق الموضوع .. حملة مجهزة لقضية قد تفجر الرأى العام ، الجملة تحوى ثلاثة أخطاء لن تحذفها الطبعة المنقحة المزيدة ، فليس هناك رأى كما أنه لم يصبح عاما بالإضافة إلى كونه لم ينفجر على أية حال من الأحوال (التي لم يعد دوامها من المحال أيضا) .

على مضض تلقى الموضوع المفرود أمامه .. الخط أزرق كبير يصعد سطرا عاليا وينزلق إلى انحناءة وتلقائية ..

هذا تحقيق عن الأدوية الفاسدة في مصر .. أرقام ووقائع وقضايا وشهادات أظن لا شيء في حاجة إلى الاستكمال .

- كف عن هذا الغرور ..

- أنا لست مغروراً .. ثم إننا كلنا هنا نتمتع بأورام منتفخة فى الذات كأن كل واحد منا محمد حسنين هيكل .. جرح موضوعه يخدش بتاريخه ..

- طيب قل لنفسك .

- وأقول للآخرين أيضا .

قلب أصابعه فى الأوراق .

- شكله موضوع مهم .. اتركه ليقرأه صادق .

- ماشى .

تغير أليس كذلك ؟

تبدلت ملامح وجهه العظمية أصلا .. بمجرد صعوده إلى المقعد .. افترس القدر وجهه تماما .. يمكن لأى محترف مكياج فى السينما أن يضع تحت شفتيه نابين كاملين وقطرات وهمية من الدم .. فيصبح لائقا به تماما .

ضحكوا جميعا .. علىّ .

استفهموا انقلابى ، وتبدل كلامى ، وتحول نغمتى ، وانكسار حيلتى وشهقوا بالمفاجأة ، وأعربت أختى الكبرى تحديدا عن رأيها فى أننى لا أستقر على رأى فى أحد أبداً .

- ألم يكن فهمى هذا حبيبك ؟! .

ويضيف معتز قادما صوته من وراء مائدة المقهى الليلية وقد انكشف الليل عن آخره :

- ياأخى .. افهم .. قلنا لك بدل المرة ألفا .. هذا رجل من فئات المستغلين من الذين قفزوا من الفجر الضمير إلى الفجر الضرير .. من ناس تسجن وتلقى فى المعتقلات إلى صناع زيف بمهارة تناسب جلاليبهم والله لم يزد بنا فى داهية إلا أصحاب البطولة الورقية .. نفسى أفهم لماذا دخلوا السجن وتشردوا وتشرذموا

ثم خرجوا ليجلسوا فوق أفخاذ السلطة تهدهدهم وتعبث فى شواربهم وتجذب الشعر الأبيض الذى نبت فى السجن من رؤوسهم .

كان معتز يقول الكلام حارا ساخنا ويهبط معى سلالم الممر الصغير فى الشوارع الخلفية لوسط البلد .. حولنا باقات الورد تعدها الأيدى الخشنة فى طقوسها المعتادة . بينما أعواد الورود ووريقاتها الخضراء تسبح فى ماء معطر محصور فى أوان نحاسية بجانب الحائط العارى من الطلاء . عصيان الخيرزان المحطمة تدوسها أقدامنا ودخان «النرجيلات» يشكل دوائر هوائية فى فضاء المقهى الملقى على الرصيف ورواده من نخبة المثقفين الزاحفين من الفقر الريفى إلى الفقر القاهرى ، يتقاسمون علبة التبغ وثمن المشروبات وأجرة التاكسى وصحيفة الأهرام.. والأجانب الصفر والشقر الذين ينشبون أظافرهم فى عنق القاهرة الأصيلة .. أعبر أنا ومعتز السلالم إلى جدار يحيط بكازينو ثرى ملاصق .. ودكان زجـــاجى معبأ بشــــرائط الفيديو وملصقاته.. أقف أمام الأشرطة التى تحمل صور الأفلام القديمة أبيض وأسود فأغوص بعينى الكليلة فى الزمن المرسوم على وجوه الممثلين رشدى أباظة وشكرى سرحان .. وسعاد حسنى .

- هل تذكر هذا الفيلم يامعتز ؟

ويعز علىّ القول - وتصعب نفسى أمامى ..

كل ما يقوله صاحبى حق ..

فمن الذى أعطى ثقته فى فهمى شاكر إلاى ؟

وها هو يعود إلى المقعد كأننا نعيد الصور فى شريط فيديو لنسترجع مشهدا بعينه ، يعود بظهره مسرعا مثل شارلى شابلن - ويحرك أصابعه آليا ويقول كلاما مغموسا فى الغموض ثم تقف الصورة لتسير مجراها العادى .

يضع قلمه فى أى موضوع أمامه - أيا كان صاحبه - ليكشط ويحذف ويضيف لمجرد أن يكشط ويحذف ويضيف .. حيث إنه لا سلطان بدون سلطة .. ولا طبق سلطة بدون طماطم ولا طماطم بدون غباء يستحق أن يقذف بها .

تفرده بالسلطة فى المجلة تحت إمرة صادق جعله مهووسا بالتآمر ، بالإطاحة بمن حوله ، قذف أصدقاءه فى صحن مقلى بالنار .. حتى يفرش طريقه بالرمل إلى المقعد الأعلى .. بينما بنيت كل تحالفاته مع الأقوياء المدفوعين من صادق . وهكذا أصبح محمد الطحان رفيق صناعة الصحيفة .. كل موضوعاته التى يشـــرف عليها تمر بسلام وابتسام .. وتشجيع ومكالمات هاتفية وتسابيح وحمد وثناء..

وتحولت فريدة خليل إلى صحفية نشطة تكتب وتنشر هكذا فجأة حيث أصبح زوجها فى منصب أرفع بمباحث أمن الدولة .. وفى كل أسبوع يطلب نشر خبر أو تقرير لها تحديدا ، يقولها فى رقة وزهق كأنه مضغوط ياعينى (التى ترى) وبات يجلس فى المجلة ساعات النهار كلها لأجل أن يعيد بنفسه مرة أخرى صياغة الموضوعات ويجتمع بالمحررين فى اجتماع طويل يستعرض فيه أفكارهم ويتحمل فرقعات القول عند البعض ، ويعزف نورا موسيقيا لعازف كمان وحيد يطم ويشرح لصغار الصحفيين ، ويقيد فى دفتره الأسماء والموضوعات ويقترح الأفكار ، عظيم وماله..

- لكن لماذا أنت فرح إلى هذا الحد ؟

- ماذا تقصد ؟

اكتم قصدى وأقصد مكتومى وأقلع وتدى وأحفر سؤالى وأسمى سكوتى صمتا وأعلى صمتى صرحا .. ويحط طائر الاكتئاب عند رئتى ، ينقر منها أطرافها ويوغل منقاره فى خجلى وضعفى .

ارتبك الرجل منهوكا بالتوتر الحاد يبلع أعضاءه .. أطرافه .. جفونه .. دموعه

أخذ يمسك بأصابعه الباردة كفى على المكتب فى رجفة مرهقة ويسألنى ..

- ما العمل ياسعادة البك ؟

غلاف المجلة بيننا يحمل عنوانا ضخما قضية الأدوية الفاسدة والرجل يضع بين الدقيقة وأختها يده على غلاف المجلة ويمرر أصابعه على العنوان ويقبض على الصفحات فى هستيريا ألقت بذور شك فى قواه العقلية ، والتى مالبثت أن تضافرت - كل القوى - علىّ وهو يحاصرنى بارتباكه .. وتخوفى .

- سعادتك نزلت الموضوع في المجلة أمس .. والدنيا انقلبت علىّ فى الشركة .. لقد نشرت نص الشكوى التى أرسلت بها إلي وزير الصحة .. كنت نشرتها فقط ولا تنشر توقيعى واسمى ..

ما العمل ياسعادة البك ؟

أنا موظف فى مكان حساس بالشركة وكلهم يتهموننى بأنى رجل مشاكل .. واختلفت معهم كثيرا .. من أجل ما يفعلونه في الأدوية إنهم يبيعون أدوية فاسدة كما قلت فى الشكوى التى نشرتها فى مقالك عارف ماذا حدث اليوم ؟

لقد نادانى مدير الشركة وقال لى اقعد هنا أمام مكتبى .. من اليوم هذا عملك تخيل ، انتظرته ثلاث ساعات من أجل أن أناقشه لكنه تهرب منى وضرب على كتفى وصرخ ، لقد ذهبت بنا فى داهية ، الصحافة ماتصدق .. نحن نبيع أدوية فاسدة يا أستاذ ياموظف يا أمين على شركتك .

وتركنى وحدى فى الشركة .

بدأ يبكى بكاء مدفونا فى عينيه .

- قعدت أبحث عن مواصلة من مقر الشركة فى الطريق الصحراوى ، كى أعود إلى بيتى فى القناطر - لقد رفضت سيارات الشركة أن تحملنى مع الموظفين كلهم ، فضلت ساعتين مع غفير الشركة كي تقف أى سيارة لى - ذهبت لأولادى وجدتهم فى هلع منذ قال لهم الجيران إن أباكم أبلغ عن أدوية فاسدة فى مصر .

تعرف وأنا فى الطريق للمجلة شعرت أن هناك من يراقبنى يمكن يقتلوننى أنت لا تعرفهم .. لقد جمعوا كل أعداد المجلة من المنطقة كلها - وارسلوا سائقى الشركة كلهم ليشتروا كل ما تيسر لهم .

يطفىء الجميع سجائرهم فى صدورهم وفى صدرى بينما أظل أنا باحثاً عن وسيلة لإطفاء توترى فى شىء .. هذا هو الكوب العاشر من الشاى الساخن الذى أتركه حتى لا يصبح كذلك .. فى هذا النهار الطويل الذى بدأ منذ نشر التحقيق فى المجلة .. لقد انقلبت الدنيا فوق دماغى فجأة .. النشوة التى عبأت صدرى بعد هذا المديح الضارى على الخبطة الصحفية تحول إلى قلق مدهش حين استدعانى رئيس التحرير طالبا كل مستندات التحقيق ساعتها وقف فهمى شاكر حائلا بين جموحى وغضبى .. لقد أكد لى أن رئيس الجمهورية بنفسه قد طلب وثائق هذه القضية وكلم صادق عنها تليفونيا .

مساحة مربعة متساوية الأضلاع والأوجاع من التفاؤل ظهرت أمامى فى هذا الصباح لكن المفاجأة جمعت خيوط جلدى فوق صدرى وفتحت جراحة قديمة وأدمت صوتى حين هبطتُ إلى غرفة التجهيز ووجدت غلاف العدد المقبل الذى أعد خصيصا عن تطورات قضية الأدوية الفاسدة قد تبدل تماما ، طلى الغلاف بلون أزرق وعنوان جديد وكلام آخر .. وتوارت عناوين الأدوية .. وصدرت أوامر بسحب الحلقة الثانية من المطبعة .. وفى ركن منزوٍ من المبنى الواطىء .. خطوت مع رفيقى كى نرى بأعيننا التخلص من آلاف النسخ التى تم طبعها .. لقد أشعلوا فيها نارا مستعرة وتحولت الأوراق أمامى إلى هشيم قلب صغير تمنى ألا يكبر .

هرسوا كثيرا من جبال النصر فى صدرى وباتت أقواس النصر مفتوحة للفائزين ، لقوائم المسئولين الحكوميين عن الأدوية الذين يعملون فى ذات الوقت بشركات قطاع خاص ، لأسماء المتورطين فى القضايا المنظورة أمام المحاكم ، لعلب كرتونية تحوى عينات من الدواء الفاسد .. لنظارة طبية لمدير الرقابة على الدواء ليستقبلنى متأنقا متكبرا فى مكتبه الزجاجى .. لابتسامة زملائى فرحوا بالحريق وسعدوا بنهاية الموضوع الذى لم يبدأ ..

أقواس النصر لا تصلح للمهزومين من أمثالى . لطائر الاكتئاب المحلق والذى لم يختر من الناس غيرى كى ينام وينقر ويأكل ويعشش وينوح ويبوح ويلوح لرفاق الطير المسافر أن يأتوا للعش الجديد .. (صدرى) ..

واستقبلني فهمي شاكر بقلة الحيلة ، أريد منك كل المستندات سنرسلها إلى رئاسة الجمهورية حسب طلبه ، أخذ يجمع منى الأوراق ومحاضر الجلسات وردودنا على إجابات المسئولين ، وأعمل بقلمه الجاف فى الأوراق .. ووضعها على مكتب صـــادق وشاركني الإحباط على وأد القضية .. وطلب منى أن أنسى ما حدث..

لم يقاوم .. لم يفتح فمه بالمعارضة .. لم يطلب الاستمرار .. لم يقاتل لاستكمال الحقيقة .. لم يقل لا .. لم يسمح حتى لفمه بنطق اللام مفردة .. وأكد لى أنها ليست الحادثة الأولى من نوعها .. هى الثانية فقط بعد عشر سنوات من نهاية الأولى.

ياشارع قصر العينى - ياأغبى شوارع الله - أفسح قليلا .. حرك نسائمك قليلا - نم قليلا .

من الذى قال إن الشوارع لا تقتل ؟

فى ردهة المجلة المؤدية إلى اللاشيء - وقف الرجل مكتنزا باللحم والشحم والنعم (التى هى نقيض لا) وهتف ضدى من موقعه كوكيل وزارة .

- هكذا ضيعتم على الدولة الملايين من أجل تحقيق صحفى معلوماته كلها خطأ . لقد عرفوه بى فهاج .. وصرخ .. تركته منصرفا إلى ردهة أخرى تؤدى إلى اللاشيء..

- ماذا إذن لو نشروا الحلقة الثانية إن اسمه يتصدرها ؟

قلت لفهمي شاكر فقال :

- ياسيدى غدا تتعود .

- إذن ألا يعـرف الرئيس .. هل ذهبت له الملفات ؟ هل يصله كلامنا ؟ .

تبوأ فهمي شاكر المقعد منفردا .. ومن فوقه سألنى ..

- هل تعتقد أن شيئا سيتغير - مازلت حالما بريئا ؟

لترحل وجوهكم عنا .. لنرحل عنكم .. لتسافر عنا بلادنا بعد ما فشلنا جميعا فى السفر عنها .. ماذا لو نقلنا الخرائط ، حركنا مقاييس الرسم .. زدنا درجة الكثافة فى اللون .. دفعنا الوطن إلى خريطة أخرى فوق جدار أخر

فتحت باب غرفة عصام على ..

وجدته جالسا على مكتبه وحيدا من رفاق الغرفة .. وقد أمسك بالصحيفة بيمينه بينما وضع يسراه تسند جبهته .

شقت قدماى الطريق إليه .. وهو ينظر لى بطبية ودهشة بريئة (إلى أن يثبت العكس) .. همست له :

- إننى أعتذر .. أعتذر جدا ..

استغرب وقال :

- خير .. علام الاعتذار .

- اعتذر عن شجارى معك حول براءة فهمى شاكر .. ونقائه وشجاعته ..

- أخيرا .. أقصد ماذا حدث ..

- كثير .

هتف عصام :

- هل قرأت مقاله اليوم .. أظن كانت الضربة القاضية بأنه يدافع عن رئيس الوزراء ويمدحه يشيد بأخلاقياته الكريمة .. صعب أن يبدأ المرء حياته بطلا وينتهى قوادا .. بينما من العظيم جدا أن ينتهى القواد بطلا ..

هذا صديقك ياحبيبى ..

لم أتحمل قسوة عصام على فهمى شاكر .. شعرت حبا وجرحاً وغماً ونقمة ودما ملوثا فوق صدرى فوقفت عند الباب مفتوحا على وجه عصام متحمسا .. متشفياً .. وأسرعت هارباً .

هبطت من التاكسى .. توقفت السيارة معطوبة فجأة .. كنا وسط الكوبرى الضخم يبتلع النيل فى جوفه الأسمنتى .. وأبواب السيارة مفتوحة على الضفتين ، والسائق ينهر غطاء ســـيارته الذى أبى أن يفتح . ودخان يتسرب من فمها إلى فمه ... والسيارات المستعجلة تمخر الطريق فى دفع الله للناس بعضهم ببعض ، والأرض الأسفلتية منشورة فى الصفحة الأولى للعيون .. والنهار يتقلص إلى خيوط بيضاء لا تظهر من الخيوط السوداء المطلة .. والهواء يترجل من منخفضاته الجوية إلى دروبنا المتصسرة .. والنيل .. - ذلك الذى نحبه كثيرا ولا يحبنا - يردد أهات عروسات النيل من الشبق أو الموت .. ومسحوبا كنت نحو الهزيمة فى منتصف الكوبرى لا أستطيع الفرار ولا القرار .. لا السيارات تقف لي .. ولا المسافات تقترب لقدمي واحترت أى الطريقين أسلك .. أى السـلوكين معبد .. أى العباد أهتف له ..

- إذ قال إبراهيم ربى الذى يحيى ويميت ..

واقتربت من حافة النيل ..

- وإذ قال ابراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى ..

- وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض .

- فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى .

كان مشهد النيل مرســـوما على رمشى .. قائما فى حضن جفنى .. وكنت وحدى لا بر .. ولا بحر (ومن لا بر له .. لا بحر له) ..

- ياإبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك ..

- قال أراغب أنت عن آلهتى ياابراهيم .

وشعرت أن الصور الملونة تمزقت فى كفى .. وأن الأطر الخشبية التى زينت جدران حياتى قد سقطت محطمة على الأرض وقد خرجت حتى انزلقت إلى النيل وغطست الفوتوغرافيا الثقيلة فى الماء .

- قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا ياإبراهيم .

- وناديناه أن يا إبراهيم .

فالتفتُ .. وأحنيت رأسي .. وصدقت وقلت للحقائق سجدا والوهم والزيف والمجلة وقصر العيني وابتسامة فهمي شاكر وصلعة الطحان والممرات الضيقة والأغبياء والأغنياء والوجوه المتعطلة عن الحياة في صالة المجلة المزدحمة رأيتهم كلهم لي ساجدين .

- وإبراهيم الذي وفى .

- سلام على ابراهيم .

مرت أمامنا سلوى أيوب طولها المتآكل بالنحافة والوجه المخطط بالملامح ..

مال على وقال فهمي شاكر وقد ابتل ريقه بالنكد :

- هذه آخر الحوادث فاسمع ياعم .. دخلت السيدة سلوى إلى رئيس التحرير وقالت له إن فهمي شاكر يلعب من ورائك وذهب الأسبوع الماضي إلى مبنى المخابرات كي يشكوك .. إنه - أنا - يعمل من أجل الإطاحة بك والجلوس على مقعدك .

هل رأيت ياعم .

وكنت أرى كل شيء كأنني أجلس فوق مقعد عال في شرفة تطل على شارع بلا آخر فإذا بي أرى العابرين والجالسين وزحام المقاهي ومداخل البيوت وواجهات المحلات. وطلاء الجدران وسطوح المنازل والشرفات المجاورة وزوايا المنعطفات .. وكأنني أضع كوب الشاي الساخن على حاجز الشرفة وأسند قدمي على بروز المقعد المواجه وأمسك بطرف صحيفة وأفتح ساقي مرتاحا تحت الجلباب الأبيض وأشم رائحة النعناع المعلق في الشرفة وتجذبني أصوات الموسيقى الخافتة المنبعثة من الداخل .

ثم كأنني - في جلستي هذه - أترنح وأسقط من الشرفة هاويا على الأرض

الأسفلتية العارية فيضحك كل سكان الشارع وعابريه .. يضجون بالضحك بينما تختلط دموعي بدمائي بكسور عظـامي ، يتمزق جلبابي تتبخر رائحة النعناع ..

رائحة نافذة منطلقة من كل سنتيمتر لسلوى أيوب ذات الثوب الضيق والحزام الملتف ومساحيق التجميل الكاملة والاعتزاز الفاجر بجسدها الأنثوى وسيجارتها بين إصبعيها تشد رائحة النعناع للرحيل لتبقى عطور الإناث ورائحة الذكور والحقائق (هذه الكلمة الجميلة القاسية) مدفونة تحت سدادات الزجاجات .

المجلة كلها مغمورة بإحساس واحد أن فهمى شاكر جلس على المقعد منفردا كي يتلقى بنطاله مسمارا طويلا مدببا ينشب في قماشه ، فيعريه أمامنا كلنا .. ذكاء رئيس التحرير سمح لهذه الرؤية بالتأييد .. وخاصة أن الجميع قد وصلوا إلى حافة الغضب من ديكتاتورية فهمى شاكر في اختياره للموضوعات والتعامل السادى مع الكتابات . كان يحاول أن ينجح وحده لينسب النجاح له وحده ويصعد وحده .. أفرط في الحماس والشائعات ..

وتفرغ لإزاحة كل المنافسين من دائرة العمل ..

مضى فتحى النحاس بعيدا عن المجلة ..

واستقال أمين فرج من الإشراف الفنى ..

وفزع الجميع لحظة ما تقدم سمير فرحات باستقالته .

كان الجميع يتساقط واحدا وراء الآخر ..

لتظل الساحة لوزيرها الداهية فهمى شاكر .. فقط حليفه الوحيد محمد الطحان يقف إلى جانبه بصوته الغليظ وجسده الفيلى وتطرفه المريض وفظاظة هجومه وسبابه لمنتقديه ..

تسربت الشائعات في ردهات المجلة – فقد انتهت جلسة المقهى إلى كارثة – كمال السعداوى أول من كسر حاجز الصمت .. ودخل إلى صالة التحرير معلقا على شفتيه ثراء المفاجأة .. مد قدميه على مساحة البلاط الباردة ذات النقوش

المجهولة ، كم تحفر الأقدام علاماتها على هذه البلاطات دون أن يلتفت أحد إلى نقوشها . إذا ما غمضت عيوني لحظة لا أستطيع أن أنكر ..

هل بلاط صالة التحرير مربع أم مستطيل ؟

هل ظهرت كسور فيه أم مازال صلبا ؟

هل هناك بلاط أم لا ؟

هل يشعر بالأقدام من فوقه .. أقدامي أم حذاء كمال اللامع حين جلس وقال :

- كنت أمس مع حلمي في المقهى .. وعرفت مصيبة .. تخيل أنه يشتغل في الإعلانات يعني يروح يعمل موضوع مع مدير شركة ثم يقنعه أنه ينزل إعلانا في المجلة .. ويأخذ هو نسبة من الاعلانات مثل أي مندوب اعلانات .

هذا ليس مهما على الإطلاق ، المهم أن فهمي شاكر يشتغل معه ..

لا تفزع هكذا .. اسمع ..

حلمي لا يعرف أحدا - يمكن أن ينشر له الإعلانات في المجلة بطريق غير مباشر كي لا يصبح في الصورة .. كما أنه خائف ، أصله شاب ومازال المشوار طويلا .. لذلك أخبر فهمي .. وفهمي هو الذي يتولى الاتصال بإدارة الإعلانات ويأخذ عمولة على ذلك . لم يقل لي نسبتها لكن فهمت أن دخله من هذه الحكاية كبير

ينفخ السعداوي في معلوماته حتى تصبح أضعاف حجمها الحقيقي لذا فقد سمعت حديثه بشيء كبير من حذر التصديق الفوري إلا أن تدريبي الذاتي على تلقي المفاجآت بدون أن أصدم .. جعلني لا أستبعد كارثة فقد النمة التي قال عنها حلمي .

وسرعان ما انطلقت الحكاية بتفاصيل أكثر مللا بين المحررين .. واعتقد البعض أن وراءها فتحي النحاس وخلافه العميق مع فهمي شاكر .. وكان الجو

المقبض التى تحياه المجلة كقيلا بإتمام كل شىء على خير ما يرام - فلم يواجه أحد فهمى شاكر ولم يؤكد آخرون الشائعة واختفى حلمى قليلا ثم عاد مكتئبا . وانحسرت المجلة كلها فى ضباب يحجب ويغلف الأسقف بالغموض . وكانت نفسى مصدودة .. وهذا الحزن الخرافى الذى يعاشرنى - أو أعاشره - بلد - أو ألد - كل يوم ستين جنينا من الإحباط والاكتئاب يزهقون - كما الحيوانات المنوية - دون جدوى فى الملابس الداخلية والعواطف الباطنية أيضا .

بردت جدا علاقتى بفهمى شاكر حتى نادانى لحظة عبورى أمام مكتبه .

- مالك .. هل أنت غاضب منى ؟

- أبدا .

- إذن لماذا لا نجلس معا مثل زمان .. إن حالك لا يعجبنى هل تمر بأزمة عاطفية لقد كنت أتحدث مع رئيس التحرير عنك . وقال إنه ليس معجبا بكسلك وانحسار شغلك هذه الأيام .. لكننى أكدت له أنك موهبة كبيرة علينا أن نرعاها وأنك كفاءة تستفيد منها المجلة من كل الجوانب .

- اشكرك .

ثم صمت مفرود ووحيد فى الغرفة .. مزقه فهمى شاكر :

- هل سمعت ما يقولونه عنى .

قالها بوهن ..

- يقولون إننى أعمل فى الإعلانات وآخذ عمولات وإننى أستفيد من كونى مدير التحرير وأنشر لرجالى وأبنى جسورا مع السلطة وأصــدقاؤك ينتقدون مقالى عن الرئيس . ثم مساحة من الهدوء الساخن .. أشعل فيها سيجارته وعبث فى شاربه الكث ..

- هل تعتقد أن وراء هذا الكلام فتحى النحاس .. أو أمين فرج ؟

- يمكن ..

- أنا أعتقد أن وراء كل ذلك يقف صادق نفسه ..

فوجئت ..

- ولماذا ؟ هو الذى اختارك وهو القادر على استبعادك ، فلم يطلق شائعات حولك طالما يستطيع أن يفعل ما يريد .. ؟

- لا يستطيع .. إنه فى حاجة لى لإدارة المجلة .. ثم أكيد هناك من يجبره على التعاون معى .. جهاز .. شخص مسئول .. ناس عاقلة ..

فجأة وقف صادق عند باب الغرفة .. توقف كلام فهمى .. بينما دخل صادق حتى مكتبه تماما .. حيانى بود الرؤساء وقال له :

- تعال - يافهمى .

أعطى ظهره متجها ناحية الباب

قام فهمى شاكر من مقعده متعجلا .

وسار - وقد ظهر انحناء خفيف فى ظهره - وراءه .

(٥)

الدوائـر

هل تتركين النيـل مفتوحا
لأرمى جثتى فى النيـل ؟

وحدى فى الغرفة ..

درت برأسى فى الجدران والأركان ..

وركبنى الحزن حتى أوشكت دمعتى الكاوية على التفجر ..

وارتفع نحيب أمى جالسة على الأريكة فى الصالة خلفها ساعة حائط قديمة تبقر دقاتها أذنى فى الليل .. ويدها على خدها الذى احمر بالدموع وارتج جسدها فى بكاء يقطع - بالموس - جلدى ..

وبان زحام الصالة فجأة .. بإخوتى وأبى وأخوالى .. يهدئون من روعها ويحيبها بينما اكفهر وجه خالى فى ضيق وتبرم ووجع مفزع .. كان شجارهما قد عصف بنا ..

وطالت الألسن وتقاذفت الكلمات .. ودق فى العائلة عمود الخلاف الخرسانى يسد الفراغ ويمنع المرور ويظلم الرؤية .

وكانت أمى منتفضة بالغضب والحـــزن والحب والحيرة والندم والغليان النسوى .

وكان خالى محاصرا بالضيق والزهق والضغوط والمسئولية وانفعل أبى الرجل الجميل الهادئ فيهم جميعا .

- أليس بينكم كبير .. اسكتوا وكفوا عن هذا فورا ..

ولم تكف أمي عن التحيب الذى جر مرضها إلى قدميها وذراعيها وخمولة جسدها كله . بينما نظر خالى إلى أمي فى رقدتها .. قاوم دموعا محبوسة ، وانصرف .

تحرك البيت كله لأجل أمي . الماء والدواء والقرآن والنصائح واللوم .. وبدا أبى أسفا حزينا لهذا الشجار الذى دخل البيت فوجده قائما .. مضى نحو غرفة نصف مضاءة .. ووقف وحده .. وكنت وحدى فى الغرفة وركبنى الحزن حتى أوشكت دمعتى الكاوية على التفجر .

- البرد يأخذ جسدى نحو طريق مغلق بالخوف والرهبة والليل الكظيم الذى يتجمع فى ذروة قاهرية فى الثالثة والنصف صباحا حيث الشوارع ساكتة من قهر النهار والسيارات قليلة تسحق الأسفلت بسرعتها المتوهجة وبعض الجائلين ينامون على عربات خشبية مرتكنة على الجدران الجهمة .. ونفبشة الفجر القادم - إذا جاء - يؤطر المشاهد الليلية المفتوحة يحرر الأطر الليلية المغلقة . فإذا بى ، حقيبتى فى يدى منفوخة هذه المرة بثياب داخلية بيضاء وعدة قمصان وبنطال مكوى وكتابين ، أحدهما ديوان لمحمود درويش (أقرب كلمة مطبوعة بعد القرآن إلى قلبى) وأوراق صفراء معدة للكتابة المفاجئة .. ووحدى أسير فى شارع الجيزة الخالى إلا من سيارات نقل متوحشة بدأت يومها مبكرا لتلحق بالطريق الصحراوى - قبل الازدحام - وجنود متناثرين فى زوايا الشوارع يبحثون عن مركبة تقلهم إلى المعسكرات قبل تمام الصباح .. ورعشة البرد تعود تقتحم البدن من قلة النوم وطول اليوم والوحدة المنفردة بى ، والسفر العاجل الذى ركب فجأة على كتف مشروعاتى حيث خرجت من صالة التحرير مندفعا فاصطدمت به .. فوزى عبد الكريم .. جسده نصف المنتفخ ونظارته السميكة وشعره الخشن وابتسامته الطيبة وسمرته علامة فارقة فى المجلة بين الملونين والبيض .. كان من السهل أن تمر الحادثة توجع بالكتف وضغط على القدم - هكذا ضحكة متألقة وابتسامة تطوى الصراخ وعبور لمنتصف الصالة ..

هكذا لكن شيئا ما خرج من سقف المجلة ليكسر إيقاع النمط اليومى فى خلق التفاصيل التى لا تحكى والبدايات التى لا تنتهى، ننسف احتمالات الاعتياد وندفع خطوطا جديدة فى الصورة المركبة ..

- تأتى معى إلى أسوان ..

قالها فوزى ممزوجة بابتسامة جديرة بالتصديق .

- ياليت

- خلاص .. اليوم الساعة الرابعة فجرا سأنتظرك فى «استرا» بميدان التحرير نروح على المطار معا ..

- ماذا سنفعل فى أسوان .. ؟

- يا أخى .. وانت مالك ..

لا أحب المفاجآت .. حتى ولو كانت سعيدة ، أؤخذ حينما أكتشف أن شيئا لم أكن أتوقعه سيقع .. كان عمر السبكى يطلق علىّ تعبير شاب النمط الزراعى .. ذلك الذى يلقى البذرة ثم ينتظر - مواقيت معلومة - لنموها ثم حصادها وطحنها وبيعها .. لم يذهب بعيدا .. لكنه لم يقترب من هذه الهزة التى تنخر عظمى لحظة المفاجآت - أياما كانت .. طيلة النهار المتبقى فى المجلة .. أنغمس فى لا شئ وأدركت أن روحى تطلع فى مشية عسكرية من فهمى شاكر والطحان والجميع .. وكانت غلالة الحزن قد ثقلت وتكثفت وصارت كما الغطاء الصوفى الثقيل الذى ألف به جسمى وأغطس فيه بأذنى كى لا أسمع بكاء أمى فى الغرفة المجاورة ليلة سفر أبى .. مكتوما محبوسا .. مبحوحا كان ..

وحزينا مكتئبا كنت ..

شئ مثل هذا عبر اليوم أمام مكتبى فى المجلة .. حتى لملمت اوراقى وصحفى وأشيائى ونفسى وخرجت من صالة التحرير إلى (المصعد - المهبط) الى بوابة المجلة إلى حرية الشارع .. وهنـاك اصطدمت فى انحناءة الطريق بفوزى عبد الكريم - ضغط على كتفى جادا ..

- خلاص .. سأنتظرك فى داسترا، الساعة أربعة ..

- ماذا فى أسوان ؟

- أبدا يا أخى .. مؤتمر سياحى .. أنا مدعو والمنظمون هناك أصحابى قرروا أن أدعو أنا الآخر أحد زملائى .. تعال معى ونزهة جميلة .. نقعد ثلاثة أيام نأكل ونشرب ونستمتع على حسـابهم .. وفى الآخر سـأكتب انا كلمتين المجاملة ولا داعى كى تتعب نفسك .

- ثم هل رأيت أسوان من قبل ؟

كان القطار محمولا بنا - يعبر فوقنا طريقه إلى أسوان .. وقد تحلقنا فى مقعدين متقابلين أنا وأسامة وعدد من زملاء الرحلة تعارفنا عليهم بمجرد جلوسنا ، الضحك يأخذ موقعه فى الحلقة وأقدامنا تحت الأغطية تقينا برد يناير القادم من ثقوب النوافذ وفتحات الأبواب السفلية .. وسهرنا الطويل وبطء القطار ونحولة أجسادنا الصغيرة .. تلاميذ ثانوى الذين اندفعوا نحو رحلة إلى أسوان فى منتصف العام .. خرجنا بحقائبنا ومغامرتنا المحدودة وبضعة جنيهات هشة للإنفاق خارج المعسكر واستقبلتنا أسوان الساحرة .. الشارع المؤدى إلى بيت الشباب .. انتظارنا فى محطة القطار الوحيدة ، وجوه الأجنبيات وتلهف الصغار . شجار المعارك الطفولية .. إحساس سائد بالغربة يكتسحنى عند النظر من نافذة العنبر المزدحم بأسرّة ذات طابقين وبالرفاق الذين عرفتهم من ساعات ..

المشهد غامض فى الخارج فيه نيل وجبال وأضواء وليل وزوارق وبيوت وأشباح ومعابد وعبيد وأجانب وآلة لحفر المجارى وطيور نهر وصوت مغنى وبلح نوبى ومشهد من فيلم صراع فى الوادى حيث الصبى النوبى الصغير يجرى وراء فاتن حمامة (ما أجملها) ويناديها مع السلامة يا بطاطا ويموج غطاء رأسه الأبيض، ومساحة من الزرع الأصفر وعربات قطار تمر فى ظلام الليل وأيدى تخرج من النوافذ تنزع أعواد قصب وأقدام أولاد تهبط من المركبة الكسولة يعدون نحو تمثال

وحيد في صحراء محاصرة بالنخيل ـ يلتقطون الصور ويمازحون الأجانب ويتباهون بلغة مكسورة .

ـ وات س يور نيم ..

ومن بعيد جدا تبدو أعمدة معابد خرافية ومسجد قديم وبائع صحف دوخنا كي نعثر عليه ومقهى شعبي منحدر .. مررنا أمامه فخاطبنا رفيقنا أن أحدا من الزملاء قد جلس أمس عليه وتعرف برجل ضخم .. دعاه على شاى وحاجة مثلجة .. وأخذ يحكي له عن الدنيا والضعف والمرض والأولاد الحلوة .. وأنه عرض عليه أن يضاجعه ففزع الولد لكنه سايره وقرر أن يدعو أصدقاءه لمضاجعته واتفقا على وعد أمام باب المعسكر .

شعرت بالغثيان من الحكاية . تنغص عليّ عيشتي سيرة الشذوذ وتدمى كل براءتي وأصبح ساعتها شاعرا بالتقزز اللانهائي من انكسار الطبيعة أمامي .. ضحكوا جميعا .. وسخروا مني .

ـ الحمد لله أنه لم يلتق بك وعرض عليك .. كان يمكن أن تموت فيها .. أو تقتله ، تركوني في العنبر وحيدا أتابع الفيل الأسواني بمزيد من الدموع الهائجة لابتعادى عن الأهل وفراق إخوتي والغداء في تمام الثانية والنصف مع موسيقى نشرة الأخبار الثانية ..

وصرت مذعورا من فكرة الالتقاء بأحد مرضى الشذوذ في طريقي .. توضأت بخوفي من مياه باردة تأتي من دورة المياه المجاورة .. جزت الممر مرعوبا لم يجف الماء عن وجهي وذراعي . دخلت العنبر مقلبا نظرى في الفراغ .. صليت صلاة متضرعة وجلسة دامعة .. لففت رأسي تحت الغطاء وانكمشت أعضائي تماما ولم يمس النوم طرف جفني إلا حين عاد زملائي في عاصفة من الضحك وحكاية الرجل الشاذ الذى نال علقة لم يرها من قبل .. وكيف تورمت عيونه وصرخ طالبا النجدة وأذعن لعنفهم هاتفا مذلولا ـ أنا امرأة ..

توقفت السيارة الأجرة أمام مقهى أسترا تماما .. هبطت منها نحو الطريق

عابرا ... المقهى مغلق إلا الباب الجانبي .. بينما تتسلل منها أضواء باهتة تكشف عن الموائد المطوية والمقاعد المبلولة المصفوفة جانب الجدار الزجاجي .. والنوافذ محكمة الغلق والمكان مغروس فى صمت مقيم كأن النهار لايحول المقهى الى زخم بشرى منقطع النظير حيث كل النظائر والنواقض والنقائض والمتناقضات تجلس على موائد متجاورة وربما مقاعد متلاصقة الظهور ووجوه عمال المقهى تمسحنا كما تمسح أياديهم أسطح المناضد .

فى الركن بدا فوزى فى معطف شتوى ثقيل يمسك بسيجارة فى المنطقة الوسطى بين شفتيه وسبابته كوب شاى ممتلئ حتى نصفه .. وحقيبته السوداء الخفيفة إلى جانبه .

كنت أخشى حضورى فلا أجده .. كما كنت أتمنى ألا أجده أيضـــا .

المكالمات الهاتفية التى أجريتها فى المساء لفهمى شاكر أعتذر عن السفر المفاجئ .. ولمعتز نبيل الذى شرحت له الموقف بأسره فشجعنى كى أسافر وأبدل الوجوه التى أراها لعل صدرى ينفرج قليلا من البؤس الذى أعيشه (تعبيره بدقة) كما أوصانى بكركديه وسودانى .. ثم وجدته فى شقتى قبل منتصف الليل أعطانى دثارا شتويا وآلة تصوير حديثة وسألنى إن كنت أحتاج نقودا فشكرتُ صداقته الحقيقية (أو هكذا تبدو لى حقيقية) وقلت له إنه يذكرنى بعمر السبكى وعندما هم بالرحيل ودعته عند باب الشقة .. لكنه التفت لى سائلا :

- هل تعرف فوزى عبد الكريم جيدا ..

أدهشنى السؤال والإجابة أيضا ..

- ليس جيدا ..

أومأ برأسه .. وقال :

- إذن عليك أن تعرف أنه مباحث .

ارتبكت وتحسست دما وهميا ونزاع أبى الغائب ..

ماذا تعلى ؟

لا شئ .. استمتع بالرحلة .. لكن لاتثرثر ..

أوشكت على حسم الأمر برمته .

- لن أذهب .

- أنت غبى يا أخـــى .. يعنى هل سيأكلك .. اذهـــب وهى تجربة على كـــــل حال .

هبط الدرجات مسرعا ..

- لاتنس السودانى والكركديه .

قام فوزى فى فرحة تناسب لياقة الرابعة صباحا دون نوم .. وانطلقنا نحو ميدان التحرير نوقف سيارة أجرة حتى المطار .

النيل كما لم أعرفه من قبل ، مساحة من الجنة السائلة المنسكبة من السماء السابعة (حيث الجنة أظن) .. وانفراد الجناح الربانى لعبور مشاة الملائكة على صفحة النيل كما لم تعرفه من بعد ..

الزورق الخشبى المصنوع بأيدٍ نوبية مغزولة بالعروق والجلد والعصب ووداعة الغضب إذا استكان وحرارة السكينة إذا ما غضبت . ينقلنا إلى الضفة الأخرى هذا النوبى الكامل - البشرة والبسمة والنظرة والقبضة والفتوة - آه يا نارى يا نارى .

كان صوته نبيلا قادما من انشقاق الصخور عن السيول واهتزاز البيوت من القاتل الهادر .

- آه يا نارى يا نارى .

هل النيل نار مخبأة فى جوف القدر .. ينحدر الزورق إلى حفرة مائية .. ومنها إلى ارتجاج خفى ينبش ظفره فى صدورنا من الخوف ونحن جلوس على قطعة الخشب الخشـــنة على يمين الزورق وشراعه المفرود يرفرف ببياض نقى متألق ..

كنا قد وصلنا تواً من المطار حيث ركبنا حافلة فاخرة أقلتنا إلى ضفة النيل الشرقية استقبلتنا الزوارق لكل ضيوف المؤتمر .. فصعدت مع فوزى إلى حيث النوبى يمد كفه فيسندنا للدخول إلى رحلة الحلم المخصص فى قصور الإمارة ..

الهواء ناعم دافئ فى أمسية أسوان الهادئة .. والغروب استئذان مهذب من الكون أن يفرغ حر الهزائم المشتعل صهدا - حسب تقارير هيئة الأرصاد الجوية - فى إناء الرحيل .. والسماء هكذا شئ معشوق كما بشرة امرأة انفجر كيانك اذا انكشف كيانها لك أنت وحدك ..

بدت الصخرة المديبة جزيرة وسط النيل فى الطريق للوصول إلى الفندق ، جرانيتية .. كأنها منحوتة فى جبهة التاريخ ندبا فى جغرافية النيل المنبسطة ..

ولكن الحمام المزدحم فوق نتوءاتها يجعل منها عشا جماعيا تصاحبه معزوفة الهديل ورفرفة الأجنحة الرقيقة والألوان المتباينة لأجساد الحمام الطائر منطلقا حول الصخرة ، فوق الماء ، جانب الزورق ، تحت السقف السمائى .. يدور ويلف ويصعد ويهبط وينحنى ويستقيم ويلمس ويحس ويغنى ويحزن ويمضى ..

تلوح بناية الفندق وتقترب ..

وتدوس الأقـدام ممشى ترابيا ثم حجريا محاطا بالزروع الخضراء المنتعشة .

نصعد غرفنا - نتسلم مفاتيحنا ونفتح حقائبنا .. نستكشف أمكنة النوم - الردهات المؤدية إلى الاستحمام .. الرؤوس التى تقطر ماء دافئا .. المناشف البيضاء فوق الكتف .. الأقدام الحافية دون جوارب أو أحذية بيتية ، مفاتيح المذياع المجهولة ، قناة الفيديو تعرض فيلما امريكيا ..

يلتفت فوزى إلىّ :

- لن أنام . سأهبط إلى أسوان ليس معقولا أن تضيع الأيام القليلة التى نقضيها هنا فى النوم .

استرخى بدنى تماما فوق السرير بملاءاته البيضاء وصوف أغطيته المحكم للغاية فظلت مفتوح العين مرهقا من الخوف والقلق الذى يصاحبنى فى لحظات السفر (سأسأل فيما بعد عن رأيى فى السفر وسأكتب وأقول إننى أحبه) .

لم أكن أستطيع النوم محملا بأفكارى ومن ثم قمت عن السرير وارتديت ملابس الخروج السريعة وشاركت فوزى الهبوط إلى أسوان .. عندما وصلنا إلى ضفة النهر اكتشفنا أن الليل قد اكتسح المدينة فوقفنا عند الصخور المطلة على النيل ونحن نكاد نلمس بأقدامنا مياهه الرقراقة وضعنا مناديل ورقية على الأرض وجلسنا ..

بينما كنت أحاول الخروج من صحبة السفر إلى سفر الصحبة .

فاجأنى كما طلقة رصاص طائشة فى ليلة فرح ريفية أزهقت روح الفرح .. وعروسه معا ..

– هل قالوا لك إننى مباحث ؟

رعدة البرد لم تكن تكفى وحدها للانفلات من المشاعر المكتومة ..

– ماذا تقول ؟

– يا سلام .. أتريد أن تقول إنك فوجئت ..

ترددت لكن الكلام وحده كان كفيلا بالانطلاق .

– أبدا المفاجأة فى اعترافك المدهش .

– وهل هى تهمة كى تستحق اعترافا ؟

– أعتقد ؟

هكذا قلت محاولا المقاومة ..

اعتدل فى جلسته على نحو مدرب ، وضع ساقا مثنية فاستقامت نظرته إلى ركبته بينما ارتاحت كفه على فخذه الآخر .

- يا عزيزى إذا كان فى مصر ألف صحفى فهناك ألفان منهم على علاقة بالأجهزة مباحث أو مخابرات .

رفعت نظارتى عن وجهى .. وأمسكت بها فى كفى بينما مسحت أصابعى عينى المرهقتين وضغطت السبابة والإبهام على أنفى لعله ينفض وجع استناد النظارة فوقه .

- شوف .. كل صحفيى مصر على علاقة جنسية بأجهزة الدولة بداية من اللمس والتحسيس إلى المضاجعة وفض البكارة حتى الصحفيين المعارضين أو المناضلين ..

خذ عندك اسم الله عليه فهمى شاكر .

اهتزت كفى فانفلتت أصابعى فترنحت النظارة تسقط على ركبتى إلى صخرة إلى النيل . فإذا بالليل ليل أشد والملامح المحيطة تغيم وتغيب وتبدو البلاد أكثر بعدا والنيل ظلمة مؤهلة للخلود .

كانت الأقدام متزاحمة على الكرة والأجساد تختنق فوق الشارع الأسفلتى حيث ارتفعت حرارة المباراة وقذف محمود بالكرة فى مرمانا فحاولت اللحاق بها ، لهثت حتى ألقى عرقى بالنظارة على الأرض فتهشمت العدسة اليمنى .. ارتجفت يدى أرفعها عن الأرض . ومحمود يضحك والكرة دخلت مرمانا وزملائى يبحثون عن بديل لى كى تكتمل المباراة .. عدت إلى منزلنا مكسور النظارة والنفس ، كان نور الشريف فى فيلمه على الشاشة يندفع فى دائرة انتقام للخونة .. وكنت أضع كفى مكان العدسة المهشمة وأشاهد الشاشة بعين واحدة وكنا جميعا نتعجب من الممثلين إذا صدقوا .. والانتقام حين يستدير .

- حظ سيئ .

قالها فوزى فى صدق ثم عرض أن نعالج الأمر كله فى الفندق .

سرنا معا بدون نظارتى .

- هل يمكن أن تسحب يدى يا فوزى .

قلتها ضاحكا فاستجاب فى ضحكة محدودة خفت أن يدوس الصمت على طرفها فجأة .

- احمد ربنا فإننا يمكن أن نعمل لك نظارة فى ٢٤ ساعة .

لكن ماذا تفعل إذا مافقدت المرأة ثدييها ..

هل صمم هذا الرجل أن يقتلنى فى أسوان .

ثم أكمل :

- لقد أجريت لزبيدة زوجتى عملية استئصال ثدييها نتيجة سرطان منذ ثلاثة شهور .

ثم دمعت عيونه .. دون أن أراها - وارتجفت كلماته الأخيرة فتخيلته فى غرفة نومه مع زوجته .. فانقبض صدرى واحترت ماذا أقول ..

لكننى حين جذبت غطاء السرير على صدرى فى غرفتنا المشتركة بالفندق .. سألته مؤكدا على حروف كلماتى :

- لماذا تقول لى كل هذه الحقائق ؟

- حقائق .. أى حقائق ..

- حكاية المباحث والصحافة وزوجتك ؟!

طيب وماذا فى ذلك .. إنك فقط الذى تعتقد فى كونها أسراراً يا ابنى كل المجلة تعرف أننى أتعامل مع الأجهزة وأن زوجتى أجرت جراحة استئصال ثدييها .. أنت فقط نائم على أذنك وعلى العموم أقول لك أنا أفضل من أن تسمع هذا الكلام من غيرى .

ثم التفت لى وهو نائم على جنبه ..

- تعرف أنك تذكرنى بمهدى عبد الفتاح مدير مباحث الصحافة حين دخلت

عليه مكتبه فى أول يوم دخلت فيه المجلة ، خرجت من المجلة إلى مكتب مباحث الصحافة . وطلبت مقابلته .. لقد بال على نفسه عندما طلبت منه أن أعمل مع المباحث .. قلت له أنا مستعد لأى مهمة تكلفونى بها .. أصل أنا عارف ديتها .. لماذا تعطل نفسك سنوات فى المقاومة .. انضب من أول يوم وسلم واستسلم ..

ثم أعطى ظهره لى ونام .

- تصبح على خير .

ماهذا الكابوس الذى أعيشه ؟ .. من أين جاء هذا الرجل ؟ . أين النظارة ؟، ظلت عيونى مفتوحة معلقة على ضوء منبعث من باب الغرفة وأخذت أشد الغطاء فوقى وأسمع همسات فوزى النائمة ولم يستجب النوم لتـوسلاتى إلا مع ضياء صباحى ملأ الغرفة رغم الستائر العـــاجزة .

وكنت قد قررت العودة فورا إلى القاهرة ..

عبرت صفوف المقاعد الوثيرة المنتظمة فى طريق الوصول الى المنصة القطيفة الحمراء والخشب المنقوش والمساند الطويلة جعلت من تحريك المقاعد عملا مرهقا .

لكننى فى سحابة الضوء الكهربى المسيطرة على قاعة الفندق .. لمحت فوزى واقفا مع أحد منظمى المؤتمر .. تعلقت بينهما دوائر دخان السجائر وبدا فوزى فى عمل جاد حقيقى لا يكشف استهانته بالمؤتمر كله وسمعنا الحديث الحاق برحلة نظمتها إدارة الفندق لضيوف المؤتمر لزيارة معابد أبو سمبل .

تلكأت فى الخطوات الأخيرة وارتكنت على المقعد أجول بنظرتى الكليلة وبرودة جسدى المتدثر رغم حر أسوان بقميص صوفى كامل الإحكام - وحلقات حمراء تلوح فى أطراف الظلام عندما أغلق عينى - كأننى أغوص تحت بحر من العتمة والحلقات الحمراء كالعوامات السوداء المطلية برقم حسابى أحمر على شاطئ

الاسكندرية حيث تنطلق الصفارات تنبه السابحين السارحين حتى البراميل السوداء المزاحة بموج البحر والسماء صافية تماما والبنايات فوق الكورنيش .. كنا نعلم مكان جلوس الأهل بمئذنة المسجد فى الجانب الآخر تظهر خلف المظلة الرقطاء مفروشة فى الرمل الأصفر محفورة فيه أقدامنا الصغيرة والأحذية المتربة وبقايا أطعمة ومذياع ضخم .. وورق لعب وقاع إناء الشاى الساخن ..

اهتزت رأسى فوق عنقى فتيقنت أننى نمت على المقعد .. بينما التصقت ركبتا فوزى بركبتى الجالسة .

– لم تنم أمس على الإطلاق ..

باخت مقاومتى وازدادت الحلقات الحمراء انطلاقا وضيقا فى عيونى .

– يعنى ، أشعر بغم حقيقى من افتقادى للنظارة .

– كنت كلما أصحو أجدك تتقلب فى الفراش وتتفخ وتتأوه .. ماذا حدث ؟ على العموم ربما تأثرت بكلامى المفاجئ .

– أخيرا اقتنعت أنه فاجئنى .

كنا قد قمنا عن المقاعد وعبرنا ردهة الفندق وتهيئنا لاستقبال حرارة الشوارع الزاحفة محطمة التكييف الهوائى المركزى والنافورة التى تتوسط ساحة الفندق .

– لقد كنت تعرف علاقتى بالأجهزة .. لكن الذى جعلك لاتنام الليلة الماضية سهولة اعترافى .

– أليس كذلك ؟

– كذلك .

ممشى الفندق الحجرى أخذناه عدوا لحاق بزورق ينتقل إلى الضفة الأخرى صمم على شراء كركديه وسودانى قبل الخروج لأبى سمبل . ولأننى كنت المضاف إليه فى الرحلة فاستسلمت تماما لقيادته .

- شوف يا سيدى .. كل جهاز فى الدنيا فى حاجة إلى معلومات ذات طرق متعددة للوصول إليها .. إحدى هذه الطرق وأهمها هم البشر أنفسهم .. قل لى بالله عليك كيف تحدد هذه الأجهزة موقفك إذا كنت مع الدولة أو نظام الحكم أو شخص الرئيس أم ضدهم . المفروض أن أى حكومة فى الدنيا محترمة تملك معلومات ، لا فرق بين حكومة عبد الناصر أو السادات أو مبارك .. أنا هنا واحد من خدام هذا النظام - أيا كان - لأنه لابد أن يكون فيه نظام .. وقضيتى هى تقديم المعلومة والنصيحة لهم من أجل الوصول لقرار سليم .

لا أفهم سر احتباس صوتى وبولى هذه اللحظات رغم الحر والعرق والزورق الذى يتهادى على سطور النيل واثقا من كبرياء قائده .. لو صعد الصبى فوق الشراع وكتب بخط ردئ فى الغالب كلمتين على القماش الأبيض ترى ماذا سيكتب ..، ربما آه يا نارى مطلع أغنيتهم المعنية .

- آه يا نارى .. يا نارى ..

وضعنا أقدامنا على اللوح الخشبى للشاطئ .. ولهثت الأحذية فى الصعود ، وركوب سيارة أجرة بدت الشوارع دون نظارتى تضيق والأسواق تظهر والوجوه تسمر جدا والبيوت تقصر واللافتات تكثر والزجاج يلون والبضائع تتكدس وأغانى المذياع تعلو والتفاصيل كلها تتكور فى ذراع جلباب شمره نوبى نبيل حددت القسمات خريطة زمنه جالسا أمام محل صغير واطئ تحت أسفلت الشارع .. والضوء منهار داخله وبضاعته فى حقائب الخوص المتسعة .. داعبه فوزى طالبا كميات ثقيلة ، أجابه فى إباء مدهش وهو يرفض التنازل عن مليم واحد فى الأسعار كان النوبى قاسيا فى نظراته ورفضه .. كأنه يدفعنا للابتعاد وظل التفسير الوحيد أنه يبيع ويكسب مع السائحين الأجانب فقط .. لكن فوزى صمم أن يستكمل المناورة معه من أجل السعر فضج به النوبى .

- ابعد ، ابعد .. والله لن تأخذ من عندى شيئا ..

ضحك فوزى حتى دمعت عيناه ومسح بكفه جانب شفتيه .. وتقطعت القهقهة العالية بالهمالة المستغربة .

تخيل لو زوجتى هى التى تشترى منه .. ربما كانت ضربته ..

ليست ناقصة . يكفيها المرض والسرطان والنوم بدون ثدى تحت زوجها ..

كانت السيدة الضخمة تملأ الشاشة تماما .. وهى تتنقل بصعوبة جسدها المكتنز تحاول ترتيب أجولة البضاعة فى المحل .. ونصف بابه الجرار مغلق .. دخل عليها الصبى الصغير فى وجل وخوف .. نظرت له حانقة يتطاير الشر من جسدها المعبأ باللحم .. لكنها حين لمحت انكساره المهزوز وشبق خجل .. ابتسمت ثم قال لها الصبى :

– أنا أستطيع أن أحملك ..

اتسعت ابتسامتها وحركة فخذيها حتى أغلقت باب المحل وعادت للصبى وضمته بعنف إلى صدرها ثم فتحت ثوبها فظهر ثدياها الضخمان مثل كرة القدم غير المنفوخة .. متهدلا ومتأثرا غرست حلمته فى فم الصبى المذعور المرتجف تتفجر عيناه اتساعا ورعبا .. كان المشهد داخل إطار أسود يحدد ملامح الشاشة فى القاعة الصامتة ، دون حس . عندما أفرغت السيدة شهوتها المتأججة ، دفعت الصبى المهزوز بعيداً عنها فى قسوة النهايات .. وأمرته بالخروج من المحل .. حاول الصبى رفع باب المحل المغلق فلم يستطع .. فضجت القاعة بالضحك المكتوم حتى انطلق .. وكنت أقاوم انتفاخ السيدة السمينة الذى كبس على نفسى فأصابنى بغثيان محتمل لم تفلح فيه الصور السينمائية التى عزفها فيلينى فى بقية مشاهد الفيلم .. وكنت أسأل نفسى ـ أو ربما صاحبى ـ هل هذا الصبى هو المخرج العبقرى فيلينى صغيراً .

– هذه أشياء صغيرة نلقاها من الصعايدة قطعا إذا ماضربت فى دماغهم .

قالها فوزى ونحن نعبر الشارع الضيق الممتلئ بالخلق وكانت حمولته قد أثقلت ذراعيه فشاركته العبء .

وأكمل :

– ومع ذلك فإن الأجهزة فى مصر بطيئة وبيروقراطية إلى درجة أن تغيير المعلومات القديمة فيها أمر مستحيل أحيانا .. صاحبك فهمى شاكر مثلا ميت كى يحول ملفه من شيوعى قديم إلى موال للنظام ورجل للحكومة أو على الأقل معارض من الداخل ولم يفلح للآن .. مع أنه والله مخلص فى هذه الحكاية .. فهو يقدم تنازلات ومجموعة خدمات لايطمع فيها أى جهاز فى الدنيا وإلا ماذا تقول لواحد كان متهما بقلب نظام حكم يصبح اليوم من مؤيدى الرئيس الموفورين على الصفحات والأغلفة .

– طيب فهمى يريد أن يصبح رئيس تحرير ـ ماذا تريد أنت بالضبط وأنت رجلهم كما تقول وبإيمان تحسد عليه .

– أنا .. يارجل .. أنا لا أريد شيئا على الإطلاق ..

– على فكرة كلهم يقولون ذلك .. رغم أنى لا أرى عيبا فى كونك تطمح إلى منصب رئيس تحرير .

– ياعزيزى لهذا شروطه وقوانينه وجزائه ..

– طيب .. أنت تحقق كل هذه الشروط .

نعم .. لكن لا أتحمل جزاءه .. أجمل شئ عندى أننى أشعر بأهميتى فى جلب المعلومة ووضع الاختيارات أمامهم .. هذا جيد .. فلان عظيم .. فلان عظيم .. فلان مفيد جدا فى هذا المكان .

ثم ضاحكا جدا :

– وبعد هذا كله يجب أن تعرف .. هناك من لهم علاقة بالأجهزة نعم ، لكن علاقة بمن ـ بشاويش .. مخبر .. ملازم أول .. لكن هناك أيضا من لهم علاقة بالرؤوس المؤثرة فى هذه الأجهزة .. النوع الأخير هم الذين يصلون أسرع ..

– أفهم من ذلك أن علاقتك بمخبر .. طالما لم تصل .

انكشفت أسنانه فى قهقهة طيبة تعطيك إحساسا أنه جالس أمام مسرحية لعادل إمام قرر فيها الأخير أن يقتلنا ضحكا .

– ستفعل مثل النوبى الذى رفض بيع بضاعته لنا .. تقفل مخك ولا تقتنع ... يا ابنى أنا رجل قانع بدورى وهو دور مهم جدا لكن مجتمعنا غير متحضر بما فيه الكفاية لاحترامه .

استلمت دورى فى الضحك لكن فوزى تجهم بشكل مختلف على ملامحه .

– بين الضحك معى .. والضحك علىّ شعرة .. أعتقد أنك قطعتها .. فانقطع الكلام وسيطر صوت الزورق يمخر النيل تجاه الفندق .. وكان الحمام يتجمع ويطير ويلف ويحلق وكنت أبصر ألوانه بالعافية .. ولمحت مبنى الفندق أطيافا تجيئ ..

دك التوتر فوزى دكا حين أخبره موظف الاستقبال أن الفوج قد انتقل بأكمله إلى «ابو سمبل» .. نظر لساعته وبدهشة فوزى وقال :

– قد يكونون الآن فى انتظار اقلاع الطائرة إلى هناك .

ابتسم فوزى دون إرادة منه أو من شفتيه أو أسنانه أو من الهواء الفاصل بينه وبين موظف الاستقبال .. لكنه نفض يديه سريعا وترك أثقال المشتريات على حاجز الاستقبال وهتف فيه ..

– أرسل أحدا بهذه الأشياء إلى غرفتنا ..

ثم انفرجت ساقاه فى مشى مهرول إلى خارج الفندق .. انتبه لتسمــرى فعاد ممسكا بقبضة يدى ، عنيفا كان يشدنى من ممر الفــنــدق ..

– هيا سنذهب إلى المطار .

غياب النظارة عن عينى جعل المشهد كله يتحول إلى ضباب مسكون بملامح مجهلة .. وكنت اكمل مالا أراه بما قد رأيته .. ومالا أسمعه بما لم افهمه .. لكن فوزى جلس على المقعد الخشبى الطويل على جانب القارب .. وأمعن فى النيل مستغرقا وربما كان ينظر لى لكننى لم أتبين اتجاه نظراته .

جلست على مكتب أجهل صاحبه .. وضعت كتبى على حافته .. بينما باحت عيونى بارتجال قدومى وعطو مجيئى وارتباك جلوسى .. كان وجهى غير مألوف لكثيرين من محررى المجلة القدامى .. وكانت فى عيونهم أشياء كلتها نقاط الكرة فوق حروف الضعف تستقبل القادمين الجدد . وازداد شعورى بالغربة ثقلا لما انكشفت أسنان سيدة نحيفة غريبة الملامح تجلس على مقعد مواجه تكتب مالا يكتب ولايقرأ ونظرت نحوى فى قبح العداء (عرفت فيما بعد أنها سلوى أيوب) .

- هل أنت معنا فى المجلة ؟

تضامنت السطور المطبوعة لمحمود درويش للتعبير عن ارتباكى فاهــتزت ارتعشت وتشابكت (هكذا رأيتها) .. وقلت لها مضموم الأحـــرف .

- نعم

ظهر فوزى فى نهاية صالة التحرير قادما نحوى .

- لقد قرأت لك يظهر انك صحفى جيد .

مطار أسوان ضيق محدود الاتساع مخنوق الزحام المقاعد البلاستيكية والتلفاز الملون المعلق والصحف الأجنبية والوجوه النوبية وتشرد الضحكات المبعثرة والحقائب الصغيرة وأكواب الشاى بالخيوط الدقيقة - ولون جوازات السفر والبطاقات الصفراء للمرور من الأبواب الزجاجية .. الحوارات المجدبة ومعاهدات النظرات الثنائية .. والعناق المعلن بين الأصابع البيضاء والحمراء بلون طلاء الأظافر .. والرغبة المركب الكيمائى فى رجفة الشفاه وخطوط الطول ودوائر العرض على الصدور العارية ونعاس العجائز وجرى أطفال بأحذية خفيفة وقبعات تسقط خلف ظهورهم فتلحق بها أصابع الأمهات والسماء وراء الزجاج فوق الرؤوس غطاء الطائرات النائمة على الأسفلت والسيارات الصغيرة المتناثرة .. وجاوز فوزى زحام السياح أمام البوابة المؤدية إلى أرض المطار قدم بطاقته الصحفية فى وجه الشرطى .. ولم ينتظر إجابته .. لكننى توقفت .. فعاود جاذبا يدى فوق درجات السلم الاربعة (قد تكون خمسة) .. وصرخ فى الجندى المفاجأ .

• معى .. إنه معى ..

أخذ يجرى .. يكاد يتعثر .. حتى لحق بسلم الطائرة .. اهتز جسدى وتبدلت الألوان فى عيونى وظننت أن شيئا ابتلانى فجأة .. فتوقفت محاولا التماسك وضعت ساعدى فوق بطنى وضغطت بعنف حتى يتوقف ، كان ألما معويا مدمرا .. التقط فوزى غيابى .. فهبط من منتصف السلم .. وجرى نحوى .

– مالك بم تشعر ..

لحظات الألم المتوهج .. انتفخت بطنى بالوجع . وشعرت ركودا فى حركتى وخمودا فى نفسى وخرسا فى صوتى ودمعا فى عينى .. وغوصا فى أمعائى وماء فى رأسى .. صارت السماء منطبقة والارض ضاقت بما رحبت وتلونت الموجودات المحيطة بالأزرق الكحلى والبنى التائه والاخضر الداكن وتساقطت مسلوبا .

– ما الذى جعل الدنيا هكذا .. والطائرة منقلبة .. والوجوه مستطيلة والاذرع طويلة مدببة والعيون جاحظة والملابس ممزقة والأكتاف مجروحة . والأصوات مبحوحة والانفراجات حادة والمقعرات محدبة والزوايا القائمة تجثو على قدميها والغربان سوداء محلقة نعيقها أسود مكثف يقف على قفا فوزى .. ثم انزاحت الخيالات كلها تكشف وجه مضيفة مضافة بالمساحيق .

تسألنى عن صحتى وعن قدرتى على الهبوط الى أرض «ابو سمبل»

فضحكت حينما رأيت فوزى طيبا ومتلهفا :

– حمداً لله على سلامتك .. إغماءة بسيطة من الإرهاق ..

– أى إرهاق

– أنسيت ـ أنك لم تنم منذ يومين ..

– هذا الخدر فى جسدى ونغمشة مشاعرى ورقدة الافكار فى خلجاتى سببها قلة النوم .

وما يدريك لعله نوم مؤجل لآخر ردهة اليقظة الثقيلة .. وما يعنيك فى أنه نوم

مسافر لاستقبالك على أرض مطار المهزلة .. رجل يسير بلا بنطاله وبنطال معلق على كتف امرأة .. وست أقدام مغروسة فى فخذ واحد وعشرين ألف امرأة أحبهن محمــود درويش لكنهن جرين خلف رجل مفتول العضلات فى اعلان تليفزيونى ملــون .

نوم هو النوم .. عن عيون لم تفتح رموشها للسحاب عابر القارات .. وعيون البنات ، عن جفن سيدة أحببتها يوما لأنها ترتدى لون النهار وتربت على كتف الأطفال فى الفصل .. نوم هو النوم .. داخل انبوبة اختبار فى معمل علوم معلمه أستاذ يحيى العظم لايقدر على التواصل مع محلول حمض الكبريتيك يد٢ كب أ ٤ ... ما النوم الذى يمكنه صب هذا الحمض فى حلمك .. فتشوه الملامح وتنداح الحقائق ويلقى الغطاء على بساط الأرض ممزق الاطراف .. أهو النوم الذى نعرفه لحظة استجدائه فى ليالى الغربة الحقيقية حين نبعد عن الأهل ويبتعدون .. وحين ينغلق القلب حزنا فلا يجد من يرحمه ، فنبكى حتى ننام وننام حتى لانبكى .. أم هو النوم الذى أراه فى عينى أخى ناعسا من جراء اللعب طول النهار يقلب قدميه فى السرير ويضرب الحائط وضلفة باب الشرفة ورأس الدمية المطلة .. فأضحك .. أم نوم طفلتى خالى دخلت عليهما فى ظهيرة عودة مفاجئة . فإذا بهما فى السرير نائمتان كتلتان من اللحم الأبيض الرقيق الناعم ركبتا الصغيرة مضمومتان نحو صدرها واصابع الأخرى فى قبضة كحوصلة العصافير .. وعيونهن مغلقة كشراعة نافذة الله .. جميلة وديعة بكر تماما .. وداعبتهما بأصابعى مررتهما على الخدود والعيون والأنف والحاجب ومنعت نفسى من الدمع على نوم لم نعد ننامه .. وطفولة لا ننالها وبراءة لانستحقها وهذه الدوائر الحمراء تكتمل أمام عيونى لحظة النوم تحت الوسادة .. نوم هو النوم غياب للرحيل المؤقت . ووفود من سفر مرطى وهو نوم .. بينما توقظه الأحلام والكوابيس وتزكمه الدموع .

كانت التماثيل الأربعة شامخة رغم انكسار احدهما .. تجلس فى فرعونية التاريخ الخرافى أمام معبد «أبوسمبل» أرض رملية معبأة بالحصى الصغير ..

واشتدت الفضيحة وتناقلتها المؤسسات الصحفية والنقابة وصارت منتدى كامل النميمية ، بطله فى الغالب أحد زملاء الطحان حيث يمكنه الحكم عليه ، لكن مالبثت الحكاية أن دخلت مضمار النسيان وباتت كغيرها معلومة تُستثقل وقت الزوم ونادرة تُستعاد عند فقدان شهية الضحك وغياب الخصوصية من المجالس .

لكن الطحان فى نهار مزدحم خرج من غرفة مكتبه منقبضا مكتوما ففتح بابه على آخره ، وصرخ فينا لآخرنا .

– كفوا يا مجلة حريم يا أولاد الكلب .

وأمسك بكمال السعداوى فجمع قميصه عند ياقته وضيق عليه فى جدار الردهة :

– تريدون معرفة من الرجل فينا ..

ثم تركه فجأة .. وعاد إلى منتصف مكتبه وصرخ وهو يلهث فاتحا أزرة قميصه وبنطاله :

– تعالوا .. انظروا جربوا بأنفسكم .

ذهب الذهول بنا جميعا وأسرعت الأيدى وأغلقت مكتبه .. وأفسح الحاضرون مكانا للرحيل .

ويقهقه الطحان كلما تذكر الحادثة وتدمع عيونه من الضحك .

– أصلى أنا خلاص .. خلصت منذ زمن .. الواحد تعب .. لم تعد هناك صحة ويضحك فى رصاص متدفق طائش .. تنطلق من فمه قطرات مائية خفيفة مزعجة .

فوزى فى وقفة مسرحية أمام جدار المعبد .

– آمون مين .. يا أيها الإله الذى يدفع الرجال أعمارهم لأجلك . وتدفع النساء أعمار الرجال لأجلك أيضا .

ثم يلتفت لى .

– داهية لو كان آمون مين نفسه مثل الطحان .

ويستمر :

– هل تصدق اننى أول من استقبل الطحان عندما جاء للتمرين فى المجلة .. شاب سمين مثل اطفال المدارس الاعدادية .. وكان عنيفا فى أجوبته وخبيثا فى سذاجة يحاول بها أن يدارى فقره وحدته واندفاعه، ظل هكذا يسعى من أجل التعيين ويعمل فى كل شئ ، البعض يقول عنه مباحث وآخرون يرون أنه على نياته وغبى أيضا ، أنا كنت من الناس القليلة التى ساعدته ومدت له يد العون للنشر واثبات الوجود ، وجاء اليوم الذى وقف فيه أمام رئيس التحرير ويقول عنى ناقص موهبة ورجل الأجهزة .

أصل هذه المهنة بلا أصل .. عليك أن تترك على باب المجلة نصف دينك الذى هو ما تملكه من الدين كله ، وتدخل الى أرض المعركة، القتال هو الحل الوحيد حتى ولو لم تكن ترغب ، حتى لو لم تكن تقدر .. أصل ماذا يعنى أن كل الناس الذين جاءوا الى المجلة واشتركوا معى فى تحقيقات صحفية كنت انا من قدمهم للمسئولين فى هذه الوزارة أو تلك ، سافرت بهم أماكن الأحداث ووقائع الجرائم والفتن ثم نشروا على قفاى أسماءهم فى المجلة ، وأعاملهم بمنتهى الحب والود ومع ذلك يخرجون فيقولون فوزى عبد الكريم صحفى ليس موهوبا وأنه مباحث ويعمل مع الحكومة .

طيب يا أولاد الكلب هل كذبت عليكم ؟ هل قلت اننى يسارى مناضل خارج من معتقل ابو زعبل ؟ لماذا الضرب تحت الحزام اذن .. لماذا الخسة وقلة الأصل .

هكذا نشبت ستون ألف دمعة فى عيون فوزى .. وصار المعبد كله ضيق السقف ، مخنوق النفس والتماثيل أصناما بليدة تهتك أمن البكاء الحر .. الخيوط المدلاة من الجدران للجدران والخطوط المنقوشة المؤدية الى باحة التاريخ المسجل

المهملات المصرية التافهة تفرش سجادة الوصول لأقدام الفراعنة والساحة المواجهة للمعبد فسيحة هائلة لايشقها سوى مقعد رخامى عريض .. وصخور مبعثرة بانتظام للجلوس . وتلوح فى زاويتى الساحة المكشوفة لسماء الكاشفة .. أشجار خضراء مهنية تداعبها النسمات العابرة من بحيرة ناصر الهائلة التى تغرق فيها العيون صفحات الماء المندهش ، انسيابية مطلقة وسفر هادئ من الجنوب إلى الشمال فى اتساع مائى يشمل النيات الطيبة والنوايا الحسنة والقلوب العذرية والتماسيح الغائبة ونظرات السائحين وطائرات الهيليوكبتر والسفن الفارية والشمس الذاهبة والحصى الملقى من الأصابع الى الأحضان والنهر الكبير سيد الموقف الأزلى .. وعناء الحديث عن سمك فى جوف البحيرة دون جدوى خروجه الينا .. ومكوث المحبين أمام البحيرة حيرى بين القاء النظرة وتأمل الشوق وبين خطف قبلة تحت شجرة تستر عرض القبلات المتعجلة .

بدأت الريح فى لعبة قاهرة .. عصفت بالحصى والآمال وصارت الوجوه أمام حافة البحيرة شيئا كالدعابة الثقيلة مع الموت السريع .. وانكمشت الموجودات كلها فى الساحة والشجر والناس والرمل والطيور والزروع المستباحة للأحذية .. ودخلنا المعبد نسعى للفرجة الخائنة .. فأجساد السائحات وغابة المكان والدافع القوى للضحك فى جوف فوزى جعلنى أكتم حديثى وأحاول التقاط كلمات مفهومة من سيل الهجائية الانجليزية التى شرع المرشد فيه خنق « آذان الفوج بها .. وجدت نفسى مع فوزى الضاحك كأن شيئا لم يجر على الخارطة منذ قرر رمسيس بناء معبده على ارض النوبة .

- هذا يا سيدى ، إله الإخصاب آمون مين ..

وضع اصبعه على الجدران المنقوشة واحمرت عيونه من الضحك

- وأظن هذا ملكا لمحمد الطحان ..

كانت ربحة المجلة خالية من الجميع .. عابرين قادمين ومتفرجين. ويبدو النهار عاديا بطيئا .. رغم حفيف الحديث المتآكل من فاطمة الذهبى مطلقة الطحان

التى تفرغت طيلة الأيام السابقة فى الاتصالات التليفونية بمحررى المجلة .. كانت الأسماء محتجة لكن الالسنة ملجمة .. جاءت إلى صالة التحرير ترتدى ثوبا ضيق الأنفاس أحمر يكشف عن ذراعيها وصدرها حتى منبت النهدين .

ووضعت ساقا مكتنزة فوق أخرى اكثر اكتنازا - وشربت ثلاثة فناجين قهوة سادة ونصف علبة سجائر - وسألها البعض عن أحوالها فى المجلة التى تعمل بها على بعد عشر دقائق بمترو الانفاق - وتبادلوا معها نكات جنسية مغطاة كأنه الضحك البرئ الذى تخشى انتقاده حتى لاتصبح انت وحدك (دائما وحدك) صاحب النية السيئة وأدارت هى الحوار لدقائق أولية حتى وصلت الى الحديث عن الطحان.. فضجت بضحكة متساوية الاضلاع ..

- كله قسمة ونصيب الطحان طيب وابن حلال وليس له فى الشر .. ولا الخير لايقوم ولايقعد ولا .. ثم ضحكة مشتركة ..

ويرد أحدهم :

- ولاينام ..

فترد بالضحكة والكلمة :

- لا .. طول عمره نائم ..

فيفهم الحضور القصد فيضحكون .. ويقهقه أحدهم حتى تصل رأسه الى الجدار .. غاصت المجلة فى الحديث عن قدرة الطحان الجنسية .. وأبدى الكثيرون شماتة واضحة فى كون هذا الجسد الهرقلى عنين ، ليس له فى الرجولة مكانة ربما لايحترم أحد أحدا ولا واحدة واحداً إلا بهذه المكانة .. مدى اتساعها ثقلها مسافة نفوذها .. مساحتها بالمتر المربع .

وكان فهمى شاكر اكثر المتكلمين فى هذا الصنف من الحوار الذى احتل مقاعد المجلة يقولها كأنها تشكك ثم أحيانا تشفى ثم دائما لفتح قنوات للآخرين لأجل العبور على جثة الطحان نهائيا .

عصافير وأوز ومفاتيح وأكف نساء ملونة .. كلها محجوبة عن نظرات فوزى المغطاة بغلالة حزن غير مباحثية .

أمسك بكتفى :

– تعال . الفوج سينزل داخل الجبل الذى انتقل اليه المعبد فى مكانه الأصلى .

واستحم فوزى فى ابتسامات مهدرة لانتزاع افكارى من الرأس المغلق ..

– هل تعرف أن الطحان على كل ما يقال عنه ونعرفه ، واعرفه انا تماما وأكثر ؟ .. يوم الخناقة التى دارت بيننا فى ردهة المجلة كان اول ما فعله هو الصراخ فىّ قائلاً :

– انت معقد من يوم عملية زوجتـــك .. وقادم لنــــا كى تقرف أهلنـا وتطلع ....

كان القبو محطم الظلمة داخل أضواء كاشفة موزعة فى بطون الحجارة تلقى بنهار محسوب بين النتوءات والبروز والصخور المسطحة والسلالم المعدنية محشورة بدقة بين جدران واضحة المعالم للصعود والهبوط ، وكان الجو مكتوما والضوء منحنيا والصوت يصحب صداه للارتفاع نحو هواء محكم التعبئة وازوجة عرق مفاجئ تضغط على حلقى .. وارتجف من عيونى ضعيفة البصر .. افتقد نظارتى تلسع عن صدرى هذا السد المنيع الذى يحجب عنى الحياة .. وذباب خلفى يأتى مصوبا جسمه الهش على جلدى ، فتخذلنى شجاعتى فأرتج ثم يفر فى الهواء وربما بين جلدى ، وفوزى منتبه حتى أخره فى شرح المرشد ومداعبة السائحات العجائز ، يمسك بذراع سيدة مسنة تهدلت جلود وجهها وعنقها وظهر كفها يحنو عليها ويضمها اليه ويرفعها درجة من السلم وينفجر من ضحكة مبحوحة .

– يابنى هذه هى السكة .. يمكن تعرفنا على واحدة فيها الرمق .. دعنى الآن وشـــأنى الواحدة منهن ذات ثدى يعوض مركب النقص داخـــلى .

ويواصل الضحك دامعا ..

حاصرتني الوحدة والغربة ووحشية القبو المستحيلة والسلالم المعدنية تعرى توتر خطواتى فوقها فتتبين دقتها لأننى قارعة طبل مفزعة تسحب من المخ صورة قارع الطبل يجول القرية معلنا وفاة أحد أبنائها يتوقف والدى عن قراءة الصحيفة ويعبر ردهة الدار إلى ممشى الحديقة إلى الباب الخشبى حتى يسمع جيدا من الذى مات .. يترحم ويحوقل ويعود للحديقة بينما ينكر لأمى أنه قد التقى بالمتوفى منذ فترة وكان مريضا أحيانا أو صحيحاً جداً أحيانا أخرى .

ارتمت فتاة أجنبية شقراء فى حضن صاحبها حين كادت أن تسقط من السلم إلى سحيق الجبل .

أسرعت اقدامى تسبق الفوج للخروج من هذا الخناق الزائد .. واسترشد بالعابرين أمامى نحو الذهاب الى الباب الذى يقود الى هواء متجدد وسماء حقيقية ومركبة كبيرة تقلنا حيث المطار .. لكن الاجسام التى أهتدى بها اختفت فجأة من امامى وصرت وحيدا أبحث فى ضلال غريب عن منفذ الخروج ... وتلعثمت أفكارى وسط نظرات تائهة فقدت عون العدسات المكبرة المقربة الموضحة ..

وتمنيت أن يظهر فوزى بسيدته المسنة ؟

أو المرشد بلكنته الاجنبية وتجاهله لى ؟

لكن شيئا لم يظهر .. وسرت نحو قدرى أفك حصار التردد عنى

فإذا بى على مقربة من هواء أصلى وباب للخروج ..

كان الصباح نبيلا .

والمنزل هادئا وممشى الحديقة مدهشا والعصافير لاتكف عن تغريدها غير المنتظم .

والشارع صامت إلا من وقع حوافر حصان يفاجئ الصباح بالفروسية .

وكنت أشعر انشقاق الذكورة الأولى فى نفسى .

وكنت منتبهاً لهذا الخروج المفاجئ إلى عالم حذر يقولون فيه الطائشين والأبرياء :

لقد صرت رجلا .

– أمون مين يا إله الإخصاب ..

قالها فوزى عبد الكريم وهو يزيح كأس الخمر من أمامه نحو حافة المائدة ثم يعيده إليه .. ويحضنه فى صدره .. ويتفرج على دخول بعض السائحين .. ويبتسم :

– ألا زلت ترفض أن تجرب الكحول ..

وكنت غاضبا من نفسى لاعنا إياها لهذا الارتباك المرعب الذى دفعتنى إليه ساعات بلا نوم وأسماع بلا توقع وأحاديث بلا توقف وهذه الذاكرة التى انكسرت فصارت سائلا لبنيا لزجاً يخرج من عود أخضر طيب لشجرة تتصدر حديقتنا .

كان الاستمرار جنونا والجنون موتا والموت سفرا والسفر فى ظلام لاينتهى، تحوطه دوائر حمراء ، ورأس مغروس فى العتمة .. وتكبس الغربة قلبى .. عجينا محشوا فى آلة نقش الكحك (التى هى إصبعى) تلكز العجين فيضيع الشكل ويفسد النقش وتصرخ أمى ..

هل أمى التى أرى ؟ أم هذا الوجه الذى يأتى لى من الحلم فأعتقد أنه وجه واقعى شفته وعرفته وسلمت عليه وتركته فى ندوة مسائية .. وأرى الوجه فى الواقع أمامى يمر كأنه الطيف يسافر فى هواء يغلف الافق فأدرك أننى فى حلم ممتد بالخيال ، هل هو الحلم الذى أعيشه الآن .. افتح عينى فإذا ظلمة خفيفة تحط على الوجود .. واخيلة كائنات عجيبة فى زوايا المكان .. وألتفت فأرى شماعا نحيلا قائما من هناك .

أنا فى الليل . أو فى الفجر . فى أسوان أم فى القاهرة أم فى الرحيل .. ومن هذه ؟ !

فوزى يصحب زوجته حتى طرف السرير ويجلس على مسنده ويزيح جسدى جانبا . وينام محشورا فى الفراغ معها على ملاءة بيضاء يخلع عنها ثوبها الأزرق، يفكه عنها فيظهر لحمها خمريا يبرق فى الظلمة ثم يمد أصابعه يمررها على كتفيها فيسقط قميص نومها اللبنى .. على أطرافه نقوشات بالدانتيلا أو الستان .. يضع كفه مرتجفة على صدرها ..

ثم يفزع من الفراغ ..

يدس رأسه فى ثدييها المستأصلين ويلتفت لى نائما جواره ..

– أرأيت ..

يزيح زوجته من الوجود للذهاب ..

يجلس نصف نائم على السرير يدخن سيجارة ..

– الجنس يا سيدى حالة شبع مؤقتة .. كل ما يحسمها هو إفراغ الشحنة.. زمان عندما كنت أصحب فتيات ليل أو سيدات يلتقطهن أصدقائى .. كنت أكاد أتقيأ بعد أن أضاجع احداهن .. وأحس أننى أريد القذف بها من الشباك .. عندما تزوجت كنت محصورا بالرغبة إلى إن تحولت إلى عادة .

ثم ضاحكا فى تلقائية :

– عادة سرية .. أى والله .. مثل أى عادة سرية فقط تتحول الخيالات إلى جسد من دم ولحم وفتحة .. وتنتهى الأمور بعد خمس دقائق عشر .. ربع ساعة لو كنت بطلا أو أبله .. ثم ماذا .. نشوة وإحساس بالبطولة ..

ثم ماذا يعنى ؟

افرض أنك فوق مارلين مونرو أو بنت خادمة قادمة من الصعيد .. أول ماتنزل خلاص لذلك لم أرهب أبدا اختفاء ثدى زوجتى طبعا سيقول السفهاء من الناس إن هذا قصر نيل يا أزعر .. وانا اقول لهم هذا النيل تضمونه فيكم ..

ثم انطلق صاخبا جدا .. واستدعى زوجته تحته .. وأنا نائم أحاول القيام

فلا أقدر .. أحاول الاعتراض فلا أقوى .. ثم تتفتح عيونى فجأة فإذا الوجود كله ضياء نهارى جميل والشمس خلف ستارة خفيفة تداعب النافذة سحبت جسمى من مضجعه الناعم وقمت ..

أزحت الستارة .

فتحت النافذة ..

فإذا النيل مفروش أمامى والجبال عالية بعيدة .. والمراكب تمخر المياه الهادئة وصحبة من النوبيين تغنى بصوت لا يأتى منه إلا الصدى .

– آه يا نارى يانارى ..

المشهد الصباحى أرسل فىّ اختلاجا ..

درت برأسى فى الغرفة

دخلت الحمام .. لكن شيئا غريبا دق فى رأسى بعنف ..

تحاملت على بصرى الضعيف ..

اقتربت من حوض الماء .. فإذا به غارق فى الدم .. أحمر قانيه .. ارتجف مرعوبا ..

ومرعوبا أكثر سمعت صوت فوزى القادم من خلفى ..

– آسف .. أصلى اثقلت فى الشرب أمس .. واستيقظت وانا أتقيأ دما .. فزعت وذهبت للطبيب فى الفندق .. ونسيت غسل الحوض .

وبانكسار لن يبعده الله عنى كثيرا .

– اسف ..

– لا أبداً .. سلامتك ...

(٦)
بلا رحمة

خسرنا كثيراً ولم يربح الحب شيئا .

أعود ..

إلى المجلة الكئيبة تدوس أقدامها العسكرية فى صدرى .

ينهشون فى لحمى .. وألوث قلبى بكرههم ..

ما الذى يدفعنى الى هنا ؟

ما الذى يبقينى فى القاهرة ؟

لا حضن رأيت هنا .. ولايد احتضنت كفى ولاكف تعد لى كوب الليمون بالماء الدافئ اتقى فيه اعراض الانفلونزا الاولى .

ولا أبى يقول يا صباح الخير .

ولا أمى تدعو لى وتربت على كتفى وتحزن لحزنى ..

ولا أخى يلح أن ألاعبه شطرنج وأثارى ..

ولادفء يحتوينى ولاجسر أعبره ويعبرنى .

ولاضمادة جرح مهداة من قلب عاشق ..

ولاكلمة حلوة عن حروفى التى أكتبها وشخصيتى التى أجهلها ..

ولاحتى سكوت يحترم صمتى ويقدر سكونى ..

ولا جدار أنقشه بقلمى أبيات لمحمود درويش ..

ولا وسادة تجفف دمعى ..

ولا اذن تسمع نحيبى ..

ولا سؤال عن اعتلال صحتى الأخير ..

ولا واحد يجرى خلفى يسألنى لماذا تغيرت ملامحك فجأة .. ارجع لجلستنا نحن أسفون ..

ولا ورقة تحت زجاج مكتبى .. تقول حضرت ولم أجدك أريد ان أراك ..

ولا هاتف يردد اسمى طالبا صوتى ..

ولاصور فوتوغرافية فى حافظة نقودى ..

ولا شئ غير هذه الهوة العميقة تجذبنى بكل عنفها وبجل ضعفى بجملة قوتها وانفراد تهافتى بوحدة هدفها وتفتت احلامى ..

انظر للهوة .. ليد تشدنى وتسقطنى ..

وأصرخ ..

واذا وجهها يعبر قبالتى ..

أركب فى المصعد .. وأضغط على الزر ..

وبينما يطلع المصعد نصف متر فقط .. أراها من خلال الزجاج المخريش تدخل استقبال المجلة ..

وجهها الذى رأيته ولم أره ..

سمتها الذى أعرفه وأجهله ..

ينزل من السماء خيط رفيع متين يجذبنى من الأرض ..

أمسك الخيط وأصعد مرفرفا إلى السماء ..

ناظرا برأسى اليها .. حيث تطل من شرفتها ممسكة بالخيط .. تبتسم وتضحك .. وتلوح لى ..

ارتجف .. وارتبك .. أكاد أنزلق إلى الأرض مكسوراً محطماً .. بينما أرى كل الأشياء مقلوبة .. والبيوت مهتزة مترنحة والأرض سماء .. والسماء ارضا .. أراها ..

وجهها ، قامتها .. قدومها ..

فلا أتكلم .. ولا أسمع ..

فقط أراها ..

صحبنى طيفها أينما توجهت .. وعانقنى لحظها فى كل خطوة تجاه ردهات المجلة المؤدية لانفجار كرات الحزن فى دمى .. شئ من أصول العبث الروحى تخربش فى حنايا القلب وتوجعه وتشك بأظافرها فى خلايا المخ .. تسأله أو تؤنبه.. تداعبه .. تشد أذنه .. اعترف بهذا الصعود النبيل لعواطفك حتى ارتعاش اليد وارتجاف النظرات وتوتر اللسان وبرودة الأطراف ودق القلب وتلون الأحلام وازدهار الفرح والبهجة المورقة والانطلاق المؤرق ... ما السر ؟ أتحسس إطار نظارتى الجديدة .. وأسأل ..

أدلف بجسدى فى غربة المكان .. تحدث أشياء فجائية منذ حضورى من أسوان ارتفع غليان فهمى شاكر المكتوم من حركة اطاحة قام بها رئيس التحرير ضده ، لقد خرج فتحى من لقاء معه امتد فى ليل المجلة وقتا طويلا .. ونزلا سويا من المبنى ووقفا أمام سيارة رئيس التحرير المنتظرة وتبادلا ابتسامات وضربة كتف.. وفى الصباح صادق يلم أوراقا من مكتبه ويقدمها لفهمى شاكر كى يراجعها للنشر ثم يصفعه قائلا :

– فتحى سيرجع يتولى مهامه كمساعد لك .. وشوف ماذا ستفعل معه ..

تلقاها فهمى شاكر هادئا يمسح على شعره حتى قفاه .. ويفرد كفه على سطح المكتب ..

ضاغطا على أسنانه البارزة .. تبدو رعشة فى خده ..

حركة لأجل القميص للولدى .. هل رأيت يا سيدى ؟

وامتعضت . كأننى حـزين . وأفك عقد الحبال الملفوفة حول عنقى .. وأخرج .

وغليان فهمى شاكر متأجج فى جبهته بالاحمرار العفوى ..

التقى بفتحى النحاس قادما من نهاية الردهة حيث عتمة نهارية ملقاة على كتفه ونصف ملامح وجهه وعدسة نظارته وابتسامته الباهتة مثل وجوه الأقنعة البلاستيكية ، وجه فتحى النحاس فيه شق اسمه فم مهمته ـ المستحيلة ـ ضحكة ملونة بصفار أسنانه من التبغ المعشش وفضية إطار نظارته يمنحه قدرة على البلادة المشاعرية .

بادرته بالتحية مقضومة الأحرف ..

لكنه صافحنى بنصف حرارة .. وأخذنى من يدى الى قاعة فارغة وأغلق الباب خلفه .

– اقعد . ماذا تشرب ، ثم ضغط على زر استدعاء عامل البوفيه

– أريد أن أكلمك فى موضوع هام .. اعتقد انك عرفت عودتى كمساعد مدير تحرير والحقيقة أنا ملاحظ منذ فترة ارتباطك بفهمى شاكر وقلت ستعقل غدا وتعرف أنه رجل محدود الموهبة والامكانات وان مصلحتك الوحيدة فى تجنب الصراع مع أحد والوقوف مع حزب فى المجلة ضد آخر .. طبعا لن أخفى عليك اننى وفهمى متنازعان فى حقنا فى هذه المجلة .. هو واحد جاء ليركب فوق رؤوسنا بينما نحن الذين زرعنا هذه المجلة بالعمل والجهد .. ثم أنا مستعد اترك هذه المعركة فورا .. لو كان فهمى موهوبا بحق .. لكن الجميع عرفوا بأنفسهم لقد تسلم المجلة منذ شهور وحده ماذا فعل ؟ أرقام التوزيع ضعيفة كما هى .. بالعكس نحن زمان عندما أمسكنا هذه المجلة فترات (وانت كنت واحداً ممن شاركوا فيها) .. شفت ماذا فعلنا ؟

وأنا لا أطلب منك أن تتحالف معي ضده أبداً أنا فقط أريدك أن تبتعد عن سكتنا .. فالذى يحاول الوقوف أمام أحد منا سيضيع فى الأرجل أنت أخ أصغر وتهمنى مصلحتك ..

ابتلعت لهجة المعلم المختلطة بلغة التهديد والتصق ظهرى بالمقعد. كانت ملامحه شديدة الصفار .. وعيونه غبية بلا ذنب للغباء .. وهو يدعى بطولة الصراع فى مبارزة ديوك سقطت أعرافها وقفزت فوقهم دجاجتهم البيضاء ، آلة ضخ العصير والمياه الغازية تقذف بمائها مثل موضوعات فتحى النحاس التى ينشرها فى المجلة والصحف العربية .. آلية مفزعة وقوالب فارغة من الموهبة والبريق .

كان الجلوس معه ضعفاً غير مرغوب فيه وغير مقدر الابتعاد عنه مكوثا فى حضرة شفاط هواء يسحب الأكسجين كله من المكان، فخرجت من القاعة حين حاول العامل الدخول بالمشروبات .. مثقلاً بعبء مواجهة تنذر بغدر آت لا محالة .. محفوفاً بالاكتئاب ..

دخلت مكتبى .. لكن الفرحة نشبت فى صدرى حين عزف طيفها فى كيانى كله موسيقى الحضور .. انبعث فى الدم تسبيح مشرق يمتص رحيقاً لزهر مجهول فى حديقة غامضة .. فى آخر ممرات الحديقة وعند أكثر الأشجار التهابا بقدوم الربيع . كانت تقف ..

عبأت الوجوه صالة التحرير .. قدوم سلمى شكرى .

دفع بعطور الاستيراد الفرنسى إلى الظهور .. مساحيق وجهها المكثفة ... خطوط شفتيها داكنة الحمرة .. جفونها الملونة ببدع يجهلها علمى الريفى، انتشاء جسدها والتواء فخذيها واكتنازهما وهياج أنفاسها وازدحام خواتمها فى الأصابع المنتهية بأظافر مدببة طويلة مدهونة بالبرتقالى القامق .. تشترك سلمى شكرى فى أنوثتها مع اتساع حياتها المفضوح .. عندما يدس خميس حسنى بابتسامة فى صدرها وتحدثه بحرارة الزمالة المصطنعة .. بينما انتصاره يقطر

أعطاه لها . هذا الجسد الذى قذف به إلى السرير .. أنامه تحت بضاعته .. وتاه فيها

كنت أعوم فى لحمها ياأخى .. هى ليست جميلة بالقدر الكافى .. لكن تعمل فى نفسها الكثير حتى تبدو أنثى كاملة .. وخاصة أنها لا تقول لا .. ولا حتى نعم.. هى توافق فوراً . بعد عشر كلمات عن العلاقة بين الرجل والمرأة والتحضر والإحساس بالوحدة .

يقولها خميس وهو منفوخ بالضحك .. والاستعراض ..

اسطوانة مشروخة ليس مقصوداً منها سوى الوصول إلى الفراش .. وقصة حب وهمية لغاية ما نزهق من بعض وخلاص ..

ثم يضيف لى وهو يجمع أشياءه فى الحقيبة ..

– على فكرة أنا لست بطلاً مغواراً لعلاقتى بسلمى .. يا حبيبى هذه مرت على نصف المجلة .. حتى بعد أن تزوجت رجلاً محترماً ظلت كما هى .. باحثة عن الحنان العاطفى ..

هذه المرة قالها وهو يكاد يسقط على الأرض من الضحك ..

– فى سيارته يبحث عن شريط كاسيت ويتركها للتسخين ويمسح زجاجه الأمامى ويضع كفيه على فخذيه .. ثم على مقود السيارة .. ثم يعدل من جلسته نحوى .

– عندك رحاب ثابت كانت بنتاً متوهجة بالجنس، فى المكتب .. فى السيارة. مجرد أن تضع شفايفك عليها تسلم نفسها لأصابعك وكفيك وصدرك وكل حاجة.. تصاحبك يومين ثم تتركك للزهق للقرف .. والبنت صريحة لم تقل لك اننا نحب بعضنـــا بعضاً أو أننا فى علاقة عاطفية .. هى عايزة .. وأنت عايز .. خلاص .. اعملوا ..

الآن – هى زوجة والمصيبة محجبة أيضاً ..

يضغط على مدوس البنزين ..

وينظر للشارع .. ويمضى ..

رحاب تدخل المجلة بكبرياء مزدوج .. واحد قادم من حلاوة وجهها الماضوية .. والآخر من تعاليها على رجال المجلة .. ثم تكتشف أنها دمية يفتح بطنها كل من يريد أن تقول بابا وماما أو تصدر بكاء مسجلاً ..

تجتمع أصواتهن فى الممرات منسحبات من النسيان .. نساء مزركشات بالألوان والمساحيق والثقافة المؤلفة خصيصاً للمواقف الحرجة .. والكلام عن المشاكل التي تعانيها البلد .. ودخان سيجارة سلوى أيوب .. وجلوس منى غربال فوق المكتب مستندة على المكتب المقابل .. وطلباتهن القهوة السادة وصيحات صفاء مرسال الضاحكة على نكتة تحمل إيحاء جنسياً وتهافت الحوار حول خصوصيات الحياة التحتية .. واستقبال زميل بضحكة وقبلة على خديه ..

وكلامهن عن حضور زوج إحداهن .. وخناقة عائلية وامتحانات الأطفال .. وغضبة الحماة .. والاكتئاب الذى لا تعرف واحدة منهن لماذا يأتى ؟ وسباحة أخرى فى حوار هام مع فتحى أو فهمى . وهزل عصام معهن حول زوجته عندما طبخت أرزاً لأول مرة .

حاجز فاصل بينى وبين نون النسوة فى المجلة ظل واضحاً ومتراكماً لا أنا أحبهن .. ولا هن يولين عناية خاصة بمشاعرى ..

ربما هذا الريف المسكون فى دمى الذى عطل خطوط التواصل فلا أستطيع أن أمنع غصة حلقى عند تبسط الكلام مع الرجال حتى درجة النكات المتبادلة .. ولا أمنع نفسى من احساس غبى بالتقيؤ اذا مالامس واحد واحدة وداعبها بالعبث فى شعرها أو هز كتفيها أو طلبه قبلة فتستسلم الأخرى لهذه القبلة البسيطة .

لم أكن أسجل تحفظاً علنيا .. لكننى كنت أسمع أصوات الرجال إذا ما انفردت ولاكت قصصاً للمغامرات الجنسية مع بعضهن وعصام يضج بالسخرية من منى غربال حين جلست مع مجموعة ذات مرة فى بار وكان أحدهم يحبها

بجنون .. جلست بينهم تشرب زجاجات البيرة وتدخن السجائر وتنطلق فى الحديث عن الدراما المفتقدة فى أفلام يوسف شاهين .. ثم تستثمر لهفة صديقها عليها فتضحك على جهله بالدراما .. فإذا به يعترض جملة على أفلام شاهين فتدلل وتختلف - فكرياً - وتصرخ - انفعالاً - وتهتف - مخدرة - ..

- ياجاهل .. أنا أقصد أفلام يوسف شاهين الأخيرة فقط .. حيث استغرق فى استعراض الذات وفتح الضمير .. لقد انعزل عن الناس وقدم نفسه للنخبة والشريحة المثقفة فقط .. أين شاهين الأرض والناصر صلاح الدين وجميلة بوحريد وابن النيل ..

وعندما يفقد المثقف ارتباطه بالجماهير تسقط كل قدرته على قيادتهم نحو الحقيقة والتقدم ..

تبدلت ملامح الحبيب وهو يدخل مناقشة تبعده عن الوجود تحت حماية الكحول ..

- ومن قال إننا فى موقفنا هنا فى البار مع الجماهير .. أنا لا أرى الجماهير حولى .

ثم ما دخل شاهين بالحقيقة والتقدم .. الرجل فنان من حقه أن يعبر عن أوجاعه وآلامه نعجب بها أهلاً وسهلاً نرفضها مثلى فمع السلامة ..

ثم يغضب وجهه ويحمر خجلاً عندما تضرب منى غريال بكلها على صدر أحد الجالسين وتمسك كتفه بأظافرها الطويلة وتنشب فيه كلماتها وتحتدم معركة الدلال بينها وبين الحبيب المختلف ..

ثم عاصفة من الضحك اللاهث لعصام وهو يضيف ..

- ياعينى وجهه أصبح مثل حبة الطماطم وقام غاضباً وأخذنا نهدئ من روعه لسبب وجيه أنه كان سيدفع الحساب كله ..

والتففنا حوله ولم يستسلم إلا عندما قامت منى غريال واتجهت نحوه

وطبعت على خده قبلة ناعمة .. فسكت وسط ضحكنا الصاخب ودفع الحساب مثل «البلوه» ..

ويمسح عصام دموعاً وهمية ..

– الآن هذا الشاب متزوج وأنجب ثلاثة أولاد ثم انفصلت عنه زوجته وتزوجت من آخر وسافرت للكويت .. أما منى غربال فكما ترى متزوجة من نشأت السحار المخرج المسرحى .

– معظم نساء المجلة يحملن خلفهن قصص غرام فاشلة .. وعناقا فى ظلمة مختلسة وشجارات حول عواطف رجل .. وتمزقات قلوب ابناء وصحفيين على حبهن .. وطلاقا طبيعيا وزواجا مستهجنا وخموراً معتقة وأغطية رأس للحجاب وأحاديث حول مستقبل العلاقات بين العجين والطحين ..

بعضهن دخل الصحافة بثدائهن وأخريات خرجن منها بثدائهن أيضاً ..

إذا بسلوى أيوب سكرتيرة سابقة لرئيس مجلس ادارة سابق صارت صحفية عبر خطابات الآلة الكاتبة ومداخلاتها الجسدية مع المسئول وسفرها – الآن – للرحلات الخارجية وحديثها – الآن – عن الموضوعات التى يتجاهلها المحررون وتفسدها إعادة الصياغة التى يقوم بها شبان جدد لا يفهمون قدراتها .. وزوجها حين يغضب من إرهاقها بالعمل فى تحقيق صحفى شاق وأطفالها المعجبين برسوم أحد فنانى المجلة .. أحبته عدة شهور من قبل – وزارته في منزله ثلاث مرات مع مجموعة زملائها وعدد غير محدد وحدها .. وأخذت رأيه فى موافقتها على خطبتها من زوجها الحالى قبل سنوات كثيرة .. تجلس تشكو له من اكتئابها وتعب الأولاد وقتل الطموح وهو يضع ريشته جانباً ويحدثها عن أهمية الصبر فى هذه العلاقات الحساسة التى تبنى على أساسها بيوت وتنهدم لسقوطها حياة ابرياء .

وصفاء مرسال ذات الجسد المحبوك والصوت المبحوح والالتواء الانثوى الأصيل تصحب كل سبعة شهور تماماً – دورة أقرب إلى انتظام الدورات الشهرية

- زميلاً لها .. فيكون صديقها وعريسها .. تداعبه هكذا أمام الآخرين .. وتدعى معه إلى مشاهدة الأفلام السينمائية فى عروضها الخاصة .. وتسافر ليوم كامل فى صحبته إلى الاسماعيلية .. وتأخذ رأيه فى خلافاتها مع أمها المسنة وتحكى عطشها لحب مفقود وقلب مفتقد وتصف له شروطها لفتى الاحلام .. وترافقه إلى مدينة الملاهى وترن ضحكتها جواره فى لعبة خطرة متشبثة بكتفيه وتغنى له مقاطع من أغنية تحبها .. وتجلس معه .. امعاناً فى اكمال مظهر جنونها الصاخب.. على حافة الرصيف وتسرد عليه رغبتها فى الانطلاق نحو المجهول .. تلك التى قتلها خطيب سابق وحبيب متحفظ وتقاسمه كوب العصير ضاحكة وتسأله عن رأيه فى موضوعها الأخير وتؤكد - بطبيعة الحال - على افتقادها للحماس .. حيث كل شئ حولها يدعو للاكتئاب والاحباط .. ويذهب لتوصيلها إلى محطة المترو أو يركب معها سيارة أجرة حتى منزلها ويطلب منها ايصال التحية لوالدتها الطيبة التى وعدها الله بمجنونة مثل ابنتها .. ثم تضحك ملء فمها وعرض شفتيها حين يداعبه زملاؤه أمامها .

- أنت عرفت صفاء مرسال .. عليه العوض ومنه العوض يا بنى هذه مجنونة رسمى ... وعندنا الأدلة .. بالذمة شاب فى ريعان عمره يضيع نفسه هكذا..

وتضحك هى جداً .. وتقول فى حنان بالغ :

- ياعينى

ويسفر هو عن غرور مكشوف ..

- لا عليكم .. والله انتم تغيرون منى .. أليس كذلك يا صفاء ..

- اه طبعاً .. يا حبيبى ..

وكنت أناقشهم .. أجادلهم .. وأضحك معهم .. جداً ..

وأصحبهن .. ونختلف ونتفق .. وألقى بالجمل فى كلماتهن .. ويأخذن رأيى

فى موضوعاتهن .. ويدعوننى على قهوة أو شاى .. ويستمعن لكلامى الصاخب .. لكن لم أحبهن .. ولم أنزع هذه الشوكة من حلقى ..

هكذا يبدو الشارع .. مرصوفاً بأسمنت تناثرت فيه الحفر وماء منسكب من الدور المحيطة يكون بحيرات هشة .. ومعطراً برائحة الظهيرة .. وخلو البال .. وهذا السكون المدهش للأسطح .. والجدران والنواصى .. وهوائيات أجهزة التلفاز.. والنوافذ المفتوحة .. والملابس المنشورة على الحبال .. والدراجات النائمة فى مداخل البيوت .. ولافتات المحلات الصغيرة .. وقطع السحاب المتجاورة فى هدوء والشمس الحانية بدفء الشتاء النادر .. والأشجار الخضراء المغتسلة من غبار الدنيا وتراب الأزمنة .. والأفرع المزهوة بجمال شتوى وراء سور مدرسة البنات .

أقف عند ناصية الشارع المستقبلة لزحام خروج الطالبات بزيهن الأزرق .. الأحاديث الناقصة .. والحوارات غير المكتملة والنظرات المتعجلة .. والاقدام المتلكئة .. والأذرع المستلقاة بالحقائب على الهواء الرزين .. والابتسامات المستندة على نهار مدرسى مضى .. بوابة المدرسة تفتح حمالة صدرها عن تفاحات الصبا الانثوى .، انشقاق نصف القمر بعد عتاب مع نصفه الآخر أيهما يبشر ليله بالضياء..

يدق قلبى عنفاً لاتحتمله نحالة الجسد وبكارة القلب الصافى .. تعزف فى رأسى زقزقة عصفور ..

ترفرف حمامة بيضاء تخرج من عشها لأول مرة داخل قفص صدرى فتتكسر أضلعه وتطير حاملة فرحى بين جناحيها .. حتى حبيبتى التى تخرج ببذلة المدرسة .. تحمل حقيبة سوداء على كتفها .. وجهها الأبيض الناصع .. عيونها الخضراء الزاهية .. شفتاها المرسومتان . حليب كفيها .. قامتها الطويلة، عودها تقشرت أوراقه الخضراء وبدا ناضجاً بالبراءة .. تخطر متناسية وجودى .. تداعب زميلاتها ترفع حقيبتها .. تتمم حديثها .. تيمم وجهها شطر البعد .. ترفع نؤابة

شعرها الصفراء عن عينيها .. الشعر بذيل الحصان المعقوص ، خلف رأسها ثم منفرجاً بخيوطه الطويلة والناعمة .

أمشي أمامها .. والتفت ..

أتحرك يميناً وأتراجع قليلاً .. وأبتسم ..

أبطئ خطوى .. وأتبع مشيها وأمعن النظر ..

أوازيها صفاً بجوار صديقاتها .. فيبتسمن ويضحكن ويغمزن لها .. فتغضب منهن فى طيبة مدهشة ..

تلتفت لى فى لوم يبدد شجاعتى ويحاصر جراتى .. فأقف .. ولا تقدر قدماى على السير بوجل الاضطراب الغامض .. لكنها حين تسبقنى بأمتار طويلة.. تلتفت فتنتظر لى .. فأهيم حباً .. والحق بظلها وحيدة رحلت عن صديقاتها .. تدخل شوارع المدينة الصغيرة .. فأتبعها تصل إلى منزلها .. تقف عند بابها ترانى فتضحك وتضغط على حقيبتها .. وتصعد سلمها ..

بينما أمر على بوابة البناية .. وأخطف نظرة نحوها فإذا بها تقف على أول درجات السلم .. تنتظر عبورى ..

أعود إلى بيتى ..

تتلقفنى ابتسامة أمى ورائحة الطعام وصخب عودة أخواتى .. وغنـــاء عبد الحليم حافظ يقف أمام «ميكروفون» أسود عريض فى شاشة التلفاز تحولت ألوانه إلى قسمة الحياة فى زمن الستينيات بين الأبيض والأسود فقط .. لا ألوان تطمس الحقائق أو تجمل الوجوه .. عبد الحليم يالهفة القلب، وإشراق العمر ودقات النبض العالية .. والحب يسكن فى اطمئنان مسام الجلد ومنافذ الجسد وزوايا القلب ..

النهار نهار فعلاً .. والوجد يطرب أرائك غرفة الاستقبال .. لوحات الجدران الزيتية .. عبد الحليم ينشد لحبه وحبى .. يغنى لى فأسمعه ..

«على حسب وداد قلبى يا بوى لهقول للطير سلامات » ..

يا حركة أصابعه وخاتمه الفضى فى أصبعه (ذكرى حبه القديم) وغمضة عيونه وانفعالات وجهه العاشق .. رجوع رأسه للوراء .. ونزول ذراعهْ إلى جانبه، وشفتاه تتحركان فى عذوبة الغناء الحلو .. وابتسامته للجمهور .. وضبطه لزاوية الميكروفون .. والتفاته لأفراد فرقته الموسيقية .. رابطة عنقه السوداء .. وقميصه الأبيض وياقته التى تصعد مع حركة يديه .. اهتزاز كفيه .. غنائه المعشوق والعاشق ..

أقف عند ناصية الشارع الهادئ المنسى فى الظهيرة الواضحة.. أنتظر قدومها، تتلكأ خطواتها .. تنظر لى فأبوح لها .. اهتف نحوها..

– أريد أن أحدثك دقيقة واحدة .

مرتجفاً وملهوفاً ..

أشعر جفاف حلقى وفراغ عقلى .

– ثانية واحدة فقط

تتمهل وتقف قبالتى .

عذوبة الاعتراف الأول .. الولوج البكر إلى الأرض الاسطورية من المشاعر الدافئة الرقيقة .. زمالتها فى حصة الدرس .. انتظار خروجها يوم الجمعة لشراء الصحف وإفطار الصباح .. تعقب خطواتها .. النظرات المختلسة .. الجمل المتقاطعة عند تقاطع الطرق .

عند الناصية .. تخاف من قدوم أحد الأقارب .. تلتفت بنظراتها متوترة .. أطمئنها وأحدثها عن أحلام نهاية الثانوية العامة ودخول كلية الإعلام .

– ما أجمل عينيك خضراء مثل زرع في حديقة القمر .

– وهل للقمر حدائق ..

يوم ارتدت الحجاب وعبرت نحوى . بت ليلى مستيقظاً ..

وعند صلاة الفجر قمت عن فراشى وتوضأت وصليت للمرة الأولى فى غير

شهر رمضان حاضراً .. وقد تحلقت فى قلبى صوفية محبة عاشقة تزفها لى زوجاً من الجنة العلوى ثم يوم وداعنا فى زحام القاهرة ..

- لقد تطورت شخصيتى بينما ظللت كما أنت طالبة ثانوى .. لقد تخرجت وعشت فى القاهرة .. واختبرت الحياة .. وخبرتنى .. بينما ظللت متربعة فى منزلك الصغير ببلدتنا ..

لم تعد مشاعرى تفيض كالماضى .. لم أعد أستطيع تحمل حب اخترته وعمرى ١٦عاماً ولكننا سنحاول إحياء مشاعرنا فساعدينى .. كنت قاسياً غليظاً .. مثقلاً بهم القاهرة وناسها ووجوهها ..

وكانت طيبة حتى براءة عدم الفهم .. مشاعرها وحبها تسبق أفكارها .. لا تستطيع ستر عجزها عن ارضائى .. ولكنها لا تملك سوى دموع وانتظار ورجوع وعتاب لغياب .. وتذكير بتبكير وتساقط أوراق نتيجة الحائط .. وترحل ملامحها غائبة واسأل زملاء المدينة الصغيرة .

- هل تزوجت ؟ هل نسيت ؟

وأمر على منزلها فأنظر للشرفة التى طالما انتظرتنى فيها ثم أخفض رأسى واعتذر عن قسوة ما قصدتها وعجز ما غلبته وأمل ما قتلته .. لكنه القلب المروع بالاختلاف .. والقاهرة الغريبة الشرسة .. وجع السفر والبعد عن الأهل ووجوه نساء وسط البلد، ردهات المجلة .. ندوات الشعر والقصة ..

ويأتى الطيف نحوى ..

أتجول فى ردهات المجلة فاذا بها أمامى ..

عيون واسعة عميقة ألقة جريئة مقتحمة لا تخفض جفناً ولا ترجف اهتزازاً.. وشعر أسود يهبط على كتفيها المضمومة فوق قامة متمردة .. قميص برتقالى فضفاض ينفك زره الفوقى .. وبنطال سماوى يحكمه حزام أسود عريض تتوسطه حلية فضية .. وحذاء أزرق فاتح يكشف جزءاً سفلياً من ساقيها .. اهتز الفؤاد لما رأى، وشعرت انقلاباً مفاجئاً فى كل عواصم جسدى ..

- قالت صباح الخير مبتسمة مندهشة من ذهولى ..

ومضت .. فاختفت ..

فإذا الاختفاء حضور .. والذهاب طلوع .. والغروب شروق ..

والرحيل مجيئ والعيون جميلة تأخذنى حتى حدود الالتقاء بمياه صافية عذبة تحيط بكتلة من البيوت الخشبية المرتفعة عن الأرض .. وبندرق أزرق فوق خشبه حروف انجليزية .. وشراع نائم .. وسفر دائم .. وبنت حلوة صغيرة - كأنها هى - تتسلق الزورق وتهبط إلى أرض الشاطئ الصغيرة .. وتقترب من شرفة منزل .. وتنادى .. وتنطق حروفها غريبة مضمومة بالغربة المنسية فى دهشة اللقاء بالأمكنة الجديدة والسفر المبكر واللحظات التى تفر من الساعات إلى الأصابع إلى الأظافر إلى النشوب فى جدار الزمن ..

وتعيدنى العيون إلى شارع قصر العينى .. فإذا فتاة تخطو فوق الرصيف تحمل حقيبتها الصغيرة وبنطالها الجينز الأزرق وشعرها الأسود الملون بالانطلاق وتعبر - الطريق فتسمع من يغازلها .. فتحجز ابتسامتها عند أسنانها وتمضى .. كأنها هى وإذا الزمان مساحة من الضحكات الناعمة ..

وإذا النيل صديق للمحبين حقاً .. والمراكب تليق بالعشاق .. والعشب أخضر .. ليس كذباً .. ومحلات الورود بمائها المكثف خلف الزجاج .. وزهور عصافير الجنة مغزولة بالحب الطازج وفتاة - كأنها هى - تخرج من محل الورد تحمل صحبة عصافير الجنة وتسير منطلقة بين السيارات .. ترفع كتفيها وتجنح بذراعها وتلقى بحقيبتها وتخطف نظرتها إلى العابرين وتحملق فى سيدة عجوز تبيع المناديل الورقية .. وتدخل مبنى الأسوار الملفوفة بالخضرة الحاجزة .

وإذا النور نور لأول مرة ..

والحكايات تنسجم مع النسيم الرقراق ..

والوجوه - يمكنها - الابتسام ..

وضجيج السيارات وشوشة النجوم ..

وصباح العابرين غزل للنهار الحر ..

والحزن لا يليق بالأحياء .. .

والسيارات تستقبل الهواء الحقيقى المصفى من التراب والغبار والدخان والدمع .. وتركب فتاة - كأنها هى - سيارة أجرة توزع عطاء أكسجين الحياة على الأمكنة التى تعبرها تمنحه للأشجار والجدران والأسوار والأرصفة والمحلات والزحام والبيوت والأطفال اللاعبين والعجائز الجالسين والمتسكعين اللاهين .. وجنود المرور والتلميذات يخرجن من المدارس .

وأقف فى الميدان .. المركبات الليلية ولهفة الساهرين للعودة .. يقدم لى البائع الذى يقف خلف عربة خشبية صغيرة وضع فوقها اناء متسعاً يحوى حبات «الكسكسى» الساخنة تخرج الأبخرة صاعدة من تحت قماشة بيضاء تغطى نصفه.. والنار مشتعلة تحت العربة فى وابور غازى سافر .. والأطباق بلاستيكية موضوعة إلى جانبه وإناء سائل .. وصينية سكر مبدور ..

وأمسك بالطبق أمد الملعقة فيه ..

ويمتد النسيم الشتوى الليلى سعيداً حولى ..

وتلثم جبهتى الدنيا ..

وأمضى أهز حقيبتى فرحاً ..

تقف فتاة - كأنها هى - فوق قرص مستدير - كأنه قلبى - جسدها نحيل وعودها دقيق وشعرها قصير وبداها ممدودتان وخطواتها رقيقة ترقص فى ثوب قصير منتشٍ .. تحرك أقدامها متزنة واثقة فوق عروق نبضى وخطوط عشقى .. وموسيقى تصعد من هناك خلف المشهد الخرافى .. وإذا بها تبتسم وتضحك وهى تختلس النظر لأحد ما وترفع قدمها عن القرص إلى الهواء فتنطلق .. فتظلم مساحة الرؤية ثم تتكشف عن شاشة بيضاء وسط مستطيل معتم .. تقف فاتن حمامة حائرة فى شرفة القصر تمسك بباقة ورد صغيرة تقرأ بطاقة حبيبها فى عيد رأس السنة .. فإذا بعمر الشريف يدخل إلى الشرفة .. فتنظر له عاشقة ولهانة غارقة فى وجد يرجف القلب ويعصر الدمع ويشد أذن المحزونين .. وتهتف ..

- خالد ..

تمتد أصابعه نحوها .. وتقترب أنفاسه منها ويصيح المدعوون فى الداخل فتنطلق أنوار ليلة رأس السنة ..

تقترب من مكتبى ..

- أنا مى الجبالي .

يمتلئ مكتبى بالطيور السابحة فى الفضاء ..

وزهور عصافير الجنة ..

بطاقات تهنئة من الحسين بن على وأمى ومحمود درويش وعبد الحليم حافظ ..

ويلمس رأسى كف النبى ..

ويحتوى الفضاء فرح روح سمائى ..

ويسافر حمام بنى يسكن أعشاشاً فى حديقة جدتى .. حتى باب المكتب ويقبل ذيل فستانها .. ويعود .. ويصافحنى الفرح .. مؤكداً أنه قد تشرف بلقائى ..

ويداعبنى أبى ما هذه العظمة ..

وتدعو أمى ربنا يكرمك يا بنى ..

وأسلم عليها .. نورت مصر يا أمى .

القاهرة التى لم تعرف الثلج .. عرفته ..

البرد عاصف، والريح جامحة ، والنيل يرتعد، والشوارع خالية والأبواب مغلقة .. والمحلات فارغة .. والطرق ساكنة .. والمركبات مشلولة، والملصقات منتزعة، والسماء ملفوفة فى الضباب والعتمة .. والصمت سيد المدينة وتاج رأسها وديكتاتور البيوت والشوارع الدموى..

القاهرة التى لم تعرف السكوت .. سكتت ..

وعند ضاحية صغيرة تقذفها الخارطة بالنسيان وتجنب أطرافها القطارات كانت حديقة خضراء تحفها الأشجار وتحيطها الزروع وتحتضنها الورود .. وتعبث فى هذا البرد المستقر العاتى أطياف أجنحة مسدلة على الهدوء المرتعش .. وحبات ثلج غريبة تلمس حواف الشجر وعيون الزرع وأفخاذ الورد المضمومة .. وكان هناك عصفور نائم ناعم منكمش يحلم بالسماء مفتوحة والأرض منفسحة والأفق رحيباً والشمس حانية والدفء طيباً .يحلم بلجوء النور للضوء المجيء..

يحلم بعناق الطيران للهواء ..

يحلم بنجوم الليل تعشق صفحة النهار ..

يحلم بلقاء مع الله على جبل موسى ..

يحلم بالعصافير تطير فإذا الدنيا رائعة والوجود مدهش والبلاد سيدة تلمس بأناملها الأجنحة ..

وبينما كان يغط فى حلم ليلته الباردة .. اذا بانفراج السماء من لمحة ضوء قادمة .. فينبعث فى جسده دفء وتخمش زغبه البني الهش حرارة تحقق الحلم المفاجيء فتأخذه العزة بالحلم فيطير ويحلق ويتمنى أن يصل جناحه إلى شجرة عالية مشرقة طالما رآها فرغب التحليق عندها والتماس شموخها ولثم أوراقها، حضن أفرعها، العصفور الذى لم يعرف الوصول .. وصل ..

وقف عند الشجرة ونام عند عشها وابتسم وضحك وزقزق وغازلها وأعلن عشقه وجاوبته الشجرة فضاحكته وزغزغته وأعلنت عشقها ..

العصفور الذى لم يعرف العشق .. عشق ..

ومكث عند جذورها فقبلها .. ولامس جذوعها وعانقها .. وأقسم بالله أنه قارب أن يعبدها ويصلى لها .. واقترب ..

لكن الشجرة - فجأة - اهتزت وتمردت وغضبت وتفجرت .. فقذفت بالعصفور ملقى فى الهواء البارد المثلج .. والسماء المعتمة .. والصمت القاتل .. والريح الآتية ..

وترنح العصفور مجروحاً ..

العصفور الذى لم يعرف الجرح .. جرح ..

انكسر جناحه .. وهزل جسده .. ونحل ريشه .. وأخذ يطير مبتعداً حتى أوشك على الموت إعياء والسقوط مدوياً .

فإذا به يصل إلى مبنى المجلة بقصر العينى ..

فيصطدم بزجاج صالة التحرير .. فينكسر ويرتمى العصفور على مكتبى .. دماؤه تسيل، شظايا الزجاج تخترق أجنحته المرتجفة .. والنافذة قد تكسر زجاجها وباتت فجوة تطل على الهواء .

ونهلت من المفاجأة المرعبة .. وخيوط الدم تتبثق فوق مكتبى .. وتسيل قطرات مفزعة نحو الأرض ..

قامت مى فأمسكت بمنديل ورقى تجفف الدم .. وتلف العصفور وأنا أضغط زر الجرس الكهربائى أستدعى عاملاً لإنقاذ العصفور ..

بكت مى قليلاً ..

ثم جففت بكاء ها ..

لكننى لم أتكلم .. لم أجرؤ على النظر إلى الدم .. وأحسست شيئاً غليظاً حاداً يحك تحت قميصى .. أظنه فرع الشجرة المدبب .

حذرونى منها ..

ناعمة جميلة متدفقة عيونها تثبتهما في وجهى حتى أخفض أنا نظراتى إلى سطح المكتب .. لوحة معلقة على الحائط .. أوراق منتشرة بين غلاف مجلة متعجلة دائماً .. تصرخ وتناقش .. وتمسك - هكذا أفاجأ - بأصابعها على ذراعى كى تنبهنى إلى موقف، تحفزنى نحو رأى .. وحذرونى منها .

فتاة شابة قادمة من أمريكا حيث عاشت عاماً كاملاً مع عمها هناك - حصلت على أجازة من المجلة لمدة عام قالت بعـدها إنها كانت فى أمريكا مع عمها -

- لا أحد يضمن جنون مى الجبالى، إلى أين وصل فى شوارع نيويورك أو على شاطئ البحيرة التى يسكن عندها عمها ..

كان الكل يقول ويشفق علىّ من انخراط البدن فى صلاة العشق المؤلهة التى بانت علىّ فوراً ..

بصوت عال تضحك .. وتلحق بضحكتها فى لحظة انفجارها الأخير ..

تشارك فى صخب مناقشات مفتوحة بلا نهاية .:

تسلم وتحيى الجميع .. وتضاحك كل زملائها .. وتداعبهم حول آخر الموضوعات والأخبار .

وتحمر وجنتاها وترفع قامتها وهى تتحدث عن حقوق الانسان - ووليسون مانديلا وجنوب أفريقيا والشباب الفلسطينى الذى تراه فى ندوات السياسة والادب .. ومالى تجنبنى العيون وتشدنى نظراتها نحوى . وتلمنى كلماتها عظماً، تكسوه شوقاً تحركه جنوناً نحو سفح تملؤه الاعشاب الخضراء ..

وخمائل الشجر وباقات الورود ..

تمعن عيونها الواسعة فىّ .. جسر من النظرات الصافية المنفجرة بالمشاعر المتدفقة، كأنها ماء طاهر عذب يغسلنى ويعطرنى .

تسحب عيونها جلدى عنى .. وتقترب بشعرها فتلفنى تدثرنى وتلوننى حتى أشابه الشمس والنيل والشجر فى آن واحد ..

مالى أرى حاجبها المرسوم يقبلنى وانفها يتنفسنى وكفها حين يلمسنى مصادفة (أو عمداً لا أحد يعلم) .. يطوقنى ويحتوينى ويضمنى فى دفّها كرة بيضاء متمردة تقبل الكرات الحمراء العابسة .

ينبش فى قلبى ظفر الحب الناعم .

- أهذا هو الحب .. حقاً ..

تبث نظرتها، لهفتها، رجفتها، التفاتها، لمحتها ايماءة رأسها، حركة عنقها،

اشارة يدها، تردد شفتيها، نعاس رمشها، ارتباك جفونها، تبث لي رسالتها لا افهم .. غبي جداً في تلقي المشاعر .. بطيء في فهم فك رموزها وترتيب اشاراتها ووضع الكلمات المناسبة مكان النقاط الخالية . التي تركتها صباح الأمس في المجلة .. أو عند رحيلها .. أو لدى انسيابها من صالة التحرير .

اقتربت مني وقالت ..

– كيف أنت اليوم .

رددت ..

– الحمد لله .. مادمت أراك وأحادثك ونتخانق وتقرئين لي موضوعاتي الصحفية ..

عادت برأسها للوراء ..

– ما هذا .. حب ..

ارتبكت وتعثرت وسكت ..

فدخلت بعيونها تغرس نظراتها في جلدي ..

– أريد أن أراك اليوم .. هل يمكن ؟

– الحقيقة أنا مسافر الليلة إلى البلدة ..

– لن أعطلك .

قالتها حادة واضحة رقيقة شفطت مقاومتي النحيلة ..

– وأنا تحت أمرك .

– لكن لن أراك في المجلة .. سوف أدعوك إلى الغداء ..

وامسكت بذراعي .

– قم، هيا بنا ..

رفرفت أمامي وهي تعبر المسافات بين المكاتب .. نزلنا في المصعد تنظر لي

معطا مبتسمة ورعشة فى يدها خفية أحسها وأندهش لها .. ونجلس فى حديقة خضراء، يلفنا نسيم حلو وشجر معلق ومقاعد خيزرانية وأناس تمر .. وأسوار حديدية حولنا .. وأصوات سيارات عابرة .. ونفير مركبات عامة وشرطى يقف أمام السور .. وسلالم مؤدية إلى مالا نعلمه .. ووشوشة الصمت تسيطر حين تكف الأشياء عن الحديث .

وضعت أصابعها دقيقة قصيرة على حافة المنضدة ..

– أريد أن أقول لك ..

ثم عبور للصمت الناعم .

– طبعاً سوف تفهم .. أقصد ..

ثم شارع من النظرات والتنهدات ..

– أصل ما أريد أن أقوله .. صعب قليلاً على الفهم ..

فى محاولة للتألق ..

– هل تعتقدين أننى بطئ الفهم ؟

صرخت سعيدة ..

– يعنى أنت تعرف ..

أومأت :

– طبعاً

صرخت فالتفت لنا الجميع – بما فيهم الشجر والنسيم والبشر..

– عارف أننى أحبك جداً ..

من انفجار الحلم إلى انهمار الأمانى ..

من قوس قزح الفرح نحو تسلق البهجة لجلدى ..

بين انفراج القمر عن ألوانه الغامضة حتى انفتاح القلب عن قوافل الفراشات المثمرة ..

من إخضرار الأعواد النبيلة إلى صعود التألق عند حافة المعجزة..

بين انشطار التفاحات في جنة مفتوحة للعاشقين صدقاً، وثورة الأزهار الزرقاء فى ألق المفاجأة بالربيع ..

عشت .. مشيت وتكلمت وقلت .. رغبت وذهبت وأتيت ونمت وصحوت وغنيت وعشقت ..

أسير معها فى شارع قصر العينى . تمسك بأصابعى أناملها وتحفر فىَّ حريق الانبهار .. تنظر فانخلع دهشة من إستقرار الأمة عند شفتيها تلفنا الخطوات .. وتمر أقدامنا على مربعات الأسفلت والأرصفة تتعانق النظرات والبسمات والأصابع والأحلام .. والتمرد الجنى يقفز فى صدرى .. فترفرف طيور مشرقة تخرج من صدري فتسبقني وتلوح لي وترشدني وتقيس مسافات الحب ومساحات الضحك وتشابك العيون ..

تغيرت دنياى مع مى الجبالى ..

أعادت ترتيب حجرات القلب الأربع .. هنا حجرة الصالون والاستقبال .. وعندما تمر فى الردهة تجد حجرة المكتب .. وعند التفاتك ترى غرفة الضيوف لاستقبال القادمين من البلدة (زيارات الأهل وقضاء وثائق القاهرة الرسمية وأجازة أخى الشقيق) .. وفى نهاية الردهة تقع حجرة النوم .. ونبتسم ..

وتقف فجأة عن رسم حجرات قلبى وتلفننى بتألقها وصدقها ..

– نفسى أراك وانت نائم .. غارقاً فى النوم واجيئ حتي حافة سريرك وأجلس، أشاهد عيونك النائمة وألمس جبهتك بعرقها وأجففه وأوقظك بأصابعى فتصحو منتفخ العين، قلق البدن، وتطلب منى أن أؤخر استيقاظك ..

ثم تصرخ وتصعد أقدامها عن الأرض لحظة ..

– آه .. ليس مهماً أن أتزوجك لأفعل ذلك .. يمكن أن أزورك فى الصبح فقط وأوقظك ونرحل ..

ممعنة مبتسمة ورعشة فى يدها خفية أحسها وأندهش لها .. ونجلس فى حديقة خضراء، يلفنا نسيم حلو وشجر معلق ومقاعد خيزرانية وأناس تمر .. وأسوار حديدية حولنا .. وأصوات سيارات عابرة .. ونفير مركبات عامة وشرطى يلف أمام السور .. وسلالم مؤدية إلى مالا نعلمه .. ووشوشة الصمت تسيطر حين تكف الأشياء عن الحديث .

وضعت أصابعها دقيقة قصيرة على حافة المنضدة ..

- أريد أن أقول لك ..

ثم عبور للصمت الناعم .

- طبعاً سوف تفهم .. أقصد ..

ثم شارع من النظرات والتنهدات ..

- أصل ما أريد أن أقوله .. صعب قليلاً على الفهم ..

فى محاولة للتألق ..

- هل تعتقدين أننى بطئ الفهم ؟

صرخت سعيدة ..

- يعنى أنت تعرف ..

أومأت :

- طبعاً

صرخت فالتفت لنا الجميع - بما فيهم الشجر والنسيم والبشر..

- عارف أننى أحبك جداً ..

من انغمار الحلم إلى انهمار الأمانى ..

من قوس قزح الفرح نحو تسلق البهجة لجلدى ..

بين انفراج القمر عن ألوانه الغامضة حتى انفتاح القلب عن قوافل الفراشات المثمرة ..

من إخضرار الأعواد النبيلة إلى صعود التألق عند حافة المعجزة..

بين انشطار التفاحات في جنة مفتوحة للعاشقين صدقاً، وثورة الأزهار الزرقاء فى ألق المفاجاة بالربيع ..

عشت .. مشيت وتكلمت وقلت .. رغبت ونهبت وأتيت ونمت وصحوت وغنيت وعشقت ..

أسير معها فى شارع قصر العينى . تمسك بأصابعى أناملها وتحفر فىّ حريق الانبهار .. تنتظر فانخلع دهشة من إستقرار الأمة عند شفتيها تلخذنا الخطوات .. وتمر أقدامنا على مربعات الأسفلت والأرصفة تتعانق النظرات والبسمات والأصابع والأحلام .. والتمرد الجنى يقفز فى صدرى .. فترفرف طيور مشرقة تخرج من صدرى فتسبقنى وتلوح لى وترشدنى وتقيس مسافات الحب ومساحات الضحك وتشابك العيون ..

تغيرت دنياى مع مى الجبالى ..

أعادت ترتيب حجرات القلب الأربع .. هنا حجرة الصالون والاستقبال .. وعندما تمر فى الردهة تجد حجرة المكتب .. وعند التفاتك ترى غرفة الضيوف لاستقبال القادمين من البلدة (زيارات الأهل وقضاء وثائق القاهرة الرسمية وأجازة أخى الشقيق) .. وفى نهاية الردهة تقع حجرة النوم .. ونبتسم ..

وتقف فجأة عن رسم حجرات قلبى وتلخذنى بتألقها وصدقها ..

– نفسى أراك وانت نائم .. غارقاً فى النوم واجيئ حتي حافة سريرك وأجلس، أشاهد عيونك النائمة وألمس جبهتك بعرقها وأجففه وأوقظك بأصابعى فتصحو منتفخ العين، قلق البدن، وتطلب منى أن أؤخر استيقاظك ..

ثم تصرخ وتصعد أقدامها عن الأرض لحظة ..

– آه .. ليس مهماً أن أتزوجك لأفعل ذلك .. يمكن أن أزورك فى الصبح فقط وأوقظك ونرحل ..

- أما اذا كنت تقليدياً فتعال فوراً لنتزوج .. تعال ..

وتمسك بيدى وتشدنى جداً جادة .. ونبحث معاً عن لوحة مأذون شرعى وأخيب حلمها المفاجئ ..

- لكن لا يوجد مأذون هنا .. ثم أنا لا أملك بطاقة شخصية فتغضب وتؤنبنى.

- أنت هكذا دائماً ..

وأربت على كتفها ..

- لا عليك سأتزوجك حتى رغماً عن أنف أمك وأصدقائك وأمريكا ودول أمريكا اللاتينية .. رغماً عنك شخصياً ..

- يا سلام .. يا ابنى أنا لا أفعل شيئاً ضد رغبتى أبداً ..

تلخذنى مفاجأة الإبرة الناغزة فتؤلمنى ..

- هل غضبت ..

- أبداً .

أرضها فضائى .. وصوتها غنائى .. ورضابها نيلى .. مخلدة فى فنائى .. موجودة فى كيانى .. مرسومة على شمسى ، منقوشة فى قمرى .. مؤلهة في عمرى مؤهلة لخرافتى ..

- هات الحقيبة عنك ..

أضحك - يا حبيبتى ثقيلة عليك جداً

كنا فى شوارع المدينة وهى تصر على حمل حقيبة الذهاب إلى البلدة .. أشفق على جسدها النحيل وعودها الرقيق من عبء الحقيبة الثقيلة .. لكنها غاضبة تصر على حملها وترفعها فوق كتفها ..

وتسير جنبى .. وأنا أضحك وأشهد الله على حبى ..

وأفتح قلبى فلخبئ مى ..

مى يارحلة الفرح فى دمى ..

مى يا غنوة الملائكة فى أذن الرسول .

مي يا حكاية البلاد حين ترسم ضحكتها على واجهة الدنيا ..

مي يا خط استواء الكون .. يفرق بين الحزن والسعادة على الخارطة .. واليابسة .

مى يا حبيبتى وقرة عينى وعزة نفسى وحبة الفؤاد ..

مى يا تفجر اللغة .. ولغة الانفجار ..

عرفت المجلة ارتباطى بمى فور إعلان العيون للحب المنطلق .. أستقبلت الأذان والألسنة لقاءاتنا .. نزولنا معاً، صعودنا معاً .. وجودنا فى صالة التحرير وحدنا نحكى حتى فراغ الهواء من ثقل أنفاسهم ..

نجلس حتى اصطحاب النهار للمغيب ..

ولاحظوا تألقى .. ابتسامى .. ضحكى .. فرحى ..

ودققوا النظر وأمعنوا حتى بانت لهم مى فى عيونى وعلى ظهر كفى وفوق جبهتى .

فلوما بعضهم ..

وهنأ بعضهم ..

وسكتوا حتى انكشاف الفجر الآتى ..

وكنت سعيداً (وفيما بعد سأعلم أن هذه الجملة تستحق الوضوء قبل نقشها .. فيما بعد) .

النهار عندما يبتدئ بوجه مى الجبالى .. تحكى .

الكافيتريا فى ساعة الصبح المبكر .. الثامنة والنصف دقة القلب تعلنها .. وانتظارى أمام المدخل .. مطلعاً على الشارع الذى يفرد ذراعيه للعمل ..

السيارات رتل من الحركات البطيئة .. ولهثت الأقدام نحو أماكن العمل .. ونوافذ المحلات الأمامية تغسلها الأيدى بالصابون والماء يلقى بكراته على الأرض والأرصفة .. طعام الفول والطعمية فى صحيفة قديمة أمام بائع الصحف الأعرج .. منفذ شركة الطيران مزدحم بالريفيين وأهل الجنوب، الرجال يجلسون على حافة الرصيف لصق الزجاج الأمامى .. بين السيارات الراكنة .

الشمس محتجزة فى النسيم الصباحى الحانى ..

وعينى مبعثرة على الفراغات بين وجوه البشر العابرين أمامى .. القادمين نحوى أبحث فيهم عن مى ..

رجفة قلبى .. وانشغال نفسى .. وتشتت روحى .. وتبعثر كيانى .. أشعر بغيابها فأتوجس وألمس صدرى أرقاً وقلقاً ..

تبدأ شظايا اللوعة والانتظار فى التمدد بجسدى ..

أدور وألف .. وأتقدم خطوتين وأعود ..

وأثبت عينى فى اتجاه واحد ثم اتململ وانتظر .

تلتى .. يا انفراج السماء عن السوسنة .

تسير فتشيدنى صلباً من السعادة الرقراقة .. من الدهشة بالنهار الجميل الذى تخطو على سجادته مى ..

– مى

الانتصار الأول للمهزوم .

الكلمة الأولى المتعثرة للخارجين من عجز الصم ..

ضوء ليلة القدر للريفيين المنتظرين على سطح ديارهم ..

صرخة الجنين لحظة الانزلاق من بطن أمه .

أهيم بالرائحة المنبعثة من فستانها .. من فستق صدرها .. ثنايا هذا العود الزاهى بالخضرة الطازجة ..

تبتسم وتلف فنجان قهوتها السادة بأصابعها الدقيقة ..

– كل عائلتى تشرب القهوة منذ الصغر . إنها أجمل لحظات دفء حقيقية أعيشها .

فى منزلنا مع أمى حين نعد القهوة فى المطبخ معاً .. تقلب البن فى الماء نضعه على موقد الغاز .. الشعلة الهادئة الفاترة .. صعود الغليان المحدود، ضغطنا زر الموقد .. انسكاب القهوة في الفنجان .. جلوسنا معاً متقابلتين نتكلم عن الناس والدنيا وغضبها منى لتهورى وجنونى .. لازالت أمى تذكر ما فعلته معها وأنا فى سنة أولى جامعة .. لقد تشاجرت مع أبى فى معركة عائلية حامية اتهمته فيها بالديكتاتورية والاستعباد وأنه يفرض رأيه بالقوة والقسوة علىّ أنا وأمى .. ودخلت غرفتى وحزمت حقائبى .. وفى منتصف الليل كنت خارج المنزل تماماً . بحثت عن مكان أبيت فيه ليلتى .

ذهبت لإحدى صديقاتى فى بيتها تعيش هناك وحيدة لسفر والديها مكثت عندها ثلاثة أيام كاملة حتي أدرك أبى خطأه .. ولما عدت إلى منزلنا، قابلتنى أمى بنظرة ألم تستعيدها إلى اليوم عندما نتذكر هذه الليلة ..

ينبش فى قلبى القلق .. أنا الريفى الذى لم يغضب عليه أبوه قط..

ويوم تصارعنا بالكلمات حول موقف سياسى للسادات، ذهبت إلى غرفته وبكيت على صدره أن يسامحنى .. بكيت حتى هطلت دموعى كثيفة فوق جلبابه الأبيض النظيف وربت على كتفى وأخذنى فى حضنه وأقسم أنه ليس غاضباً علىّ.

اندهش من قدرة مى على التمرد واعجب من انفكاك الحبال التى تربط زورقنا بشواطئ الأهل والعائلة ..

– تحكى لى عن سفرها لأمريكا وإصرارها على الخروج من حياة الرتابة والملل التى عاشتها فى المجلة .. مكوثها هناك بين إعداد بعض الدراسات الفاشلة والتردد على الجامعة .. والترجمة لبعض الإذاعات المحلية وزيارات متعددة للولايات الغربية .

وأتردد :

- هل رافقك أحد فى هذه الزيارة ؟

فتضحك قلقة من سؤالى وتقول :

- كنت وحدى .

عند انفتاق الألم بالأمل .. أسألها ..

- مى ..

فتقول ..

- أعرف ماذا تريد أن تسأل عنه .. هل عشت قصص حب من قبل .. نعم.. طبعاً وسأحكيها لك بالتفصيل ..

فى اندفاعة الخائفين ظهور الشبح لحظة عودتهم من صلاة الفجر.

- لا .. الماضى ملك لك .

- أخاف أن تندم على أنك لم تسمعنى .

- ليست قصصاً ناجحة أليس كذلك ..

- طبعاً وإلا ماجمعنى الحب معك .. كلها قصص عابرة مضت .. واذا أحببت .. أحكيها لك فوراً ..

مرة أخرى يركب العناد الخوف وجريان نحو اللفظ .

- لا

- وهى قصص ثلاثة ..

- أرجوك ..

انتقل من الوجل والقلق إلى رؤية العينين الواسعتين تشقان صدرى .. ماله صدر طرى هش نحيل تشقه العيون إذا ما أرادت .. وتبصره دون مشقة .. وتحشر فيه النظرة والبسمة والقنبلة كيفما شاءت..

أهبط من السيارة الأجرة التي تقلني من البلدة . حاملاً حقيبة السفر، اخط على الأسفلت القاهرى - مختلف فعلاً أكثر جهامة وسواداً وقتامة - أعبر الأرصفة .. أركب الحافلة العامة .. أتأمل كورنيش النيل بالمراكب النائمة ..

الحشائش الخضراء التي أحتلته .. البنات مع أحبائهن على الصخور والمقاعد الحجرية، أصحاب زوايا الشاى المتواضع .. الكوبرى المروع المنفرس بالأسلحة الحديدية التي تتكشف دون الأسمنت فى طبقته الأخيرة الكاسية .. ميدان التحرير فى تقاطعه مع إشارة شارع قصر العينى .. تعبره الحافلة فيقفز قلبى من موطنه إلى وطنه الجديد . ألهث نحوها

ادور بحثاً عنها ..

التفت فالمحها فتلخذنى إليها وضاءة أراها كما لم تكن .

أمد أصابعى نحو كتفها .. اقربها من كتفى ونسير فى الطرقات .. أمسكت كفها وأطبقت عليه أخشى انفلاته منى .. ونسير فى الأزمنة .. نركب معاً سيارة الأجرة تفر من الميادين تدخل شارعها المحاط بسورين .. سور خضرة وسور الأبنية ..

أبادلها شوقاً منسوجاً - يدوياً - بالأفئدة ..

- أحبك جداً .

فتهزنى برنة صوتها :

- وأنا أيضاً أحبك جداً .. أحبك موتاً ..

- لا تقولى هكذا أبداً .. قولى أحبك حياة ..

اتركها عند مدخل بيتها ..

تلوح لى وتصعد .. ودقات قلبى فى عنف أنكى ..

اتجه ناحية الشارع الموازى .

خطوط مترو تقصم ظهره .. والبيوت قديمه من أثر العز القاهرى الراحل ..

والناس طيبون فى الحوانيت والأرصفة .. والبيوت والمركبات .. والنهار المودع، نظرتها المشتاقة .. الملهوفة ..

أصبعها فوق خدى .. تمرره ناعماً رطباً ..

أبتسم وتسلم كلها لشفتى ..

أشم عطرها القادم من ركن الجنة .

ألمس وجهى الملتاع بالعشق ..

اضمها لى . أذوب فيها .. تلهث فى ..

أعصر شعرها .. ألثمه .. تضغط يدها فى عنقى .أدور بها وفيها.

- أحبك يا مى ..

- أحبك جداً .

تعود برأسها للوراء وتبتسم فى انفصال ورقة الزهرة لحظة قطفها .. تتلاقى عيوننا .. بسمتنا .. أنفاسنا .. يندمج الوجد فى الجسد، تصعد النشوة حتى الانفلات عن الوجود المزدهر .

تهيم حبات العرق فى مسبحة العاشقين .

تزغرد التفاحات أنين الصبابة ..

تتشابك اصابعنا .. وتتفك ..

يستقبلنا النسيم الخارجى ..

يهيئنا لعبور آخر .

- أكره أدوات التجميل وصناعة التزييف المتحضرة .. حمرة للشفاه وخضرة للجفون وهذا اللون فوق الخدود ..

- ماذا تقول ؟

- هذا ذوقى ..

- طيب وأنا مالى ..

– ماذا تعنى ؟

– أنت حر .. تحب وتكره التجميل لكننى حرة أيضاً فى استخدامه من عدمه .

– وهل هذه الحرية ..

– نعم .. اذن ماذا تكون الحرية ..

– أعتقد أن هناك قضايا تستلزم التمسك بها أكثر من هذه الصغائر .

– وأعتقد أنه هناك قضايا تستلزم كرهاً أكثر من هذه الصغائر ثم الحياة كلها عبارة عن تفاصيل صغيرة للبنى آدم تكون شخصيته وأنا لا أستطيع التخلى عنها .

– واذا قلت لك إنني أكره التجميل .. والفساتين القصيرة التى تكشف لحم البنت للعيون ..

– ولماذا تراها العيون وتبحلق فيها .. لماذا لا تطلب من الناس ألا تنظر للسيقان العارية بدلاً من أن تغطى هذه السيقان ؟

– هذا انقلاب المنطق وتبدل الحقيقة ..

– لا تقل لى غيبيات .. أنا أؤمن بالعلم والعقل ..

– رغم أننى أؤمن يقيناً بالغيبيات إلا أننى سأناقشك بالعقل .. فأنا أرفض من منطق خصوصية الفتاة الشديدة التى لا تسمح لجسدها أن يكون بضاعة للسائلين أو الناظرين .

– تأكد أن هذا فقط من جراء تخلف مجتمعنا .. لكن فى المجتمعات الأوربية اذا سارت البنت بالشورت القصير .. لن يلتفت لها أحد ..

– ممكن .. لكن هذا لا يمنع حوادث اغتصاب فى الشوارع هناك .. ثم لماذا كانت هذه قيم مجتمع فإننى أدركها ولكن لا أحترمها .. هذا منطق قوى المرأة .

– أنت لا تحترمها فقط لأنك بعيد عنها وتربيت على أنها خطأ .

- جائز .. لكتنى أرى خصوصية علاقات الناس ببعضها .. بمعنى أننى لصلتى بك وحبى لك نتحاور ونتكلمَ عن أشياء خاصة دقيقة ليس لآخر أن يقرب منها .

- ليس إلى هذا الحد .. فهناك الأصدقاء ..

- أى أصدقاء ..

- أصدقائى أصحابى الذين أحبهم ..

- ما معنى تحبينهم هذه ..

- حب عن حب يفرق .. هناك أصدقاء لى أشعر بحنين اليهم أحياناً ..

- نعم يا أختى ..

وينفجر الصداع فى رأسى .. ونصل إلي تجهم يمتقع له وجهى، يتبدل ويغضب، وهى تشفق علىّ من صدامات كلماتها مع معتقدى . فترجو منى ألا أغضب - أنا آسفة .. قلت لك أكثر من مرة لا داعى للمناقشة .. ثم أنك تتصور أي ايمان لى بافكار أو نظريات على أنها تصرفات وسلوكيات أقوم بها فعلاً، رغم أن هذا غير صحيح، فأنا لا أرتدى فساتين عارية أمامك كى تغضبَ منى .. ولا أقبل زملائى فى ردهات المجلة كما تفعل أخريات .

يصعد فىّ الغليان .. أشعر دمى محروقاً .. وعروقى تجرى فيها دفعات من الماء المغلى الذى يعصف براحتى ويهدد روحى .. ويضغط على مدقات رأسى الضعيفة حين قال لى معتز ..

- لقد كانت مى على علاقة بوليد الشامى أحبته عامين ثم تركته قبل السفر لأمريكا ولقد أخبرنى أحد أصحابى الذين يعرفونها جيداً بوجودها معه منذ أيام فى معرض رسم بسميراميس . أنا قلت أقــول لك حتى لا تغضــب اذا عرفت لوحدك .

تسود الدنيا فى عيونى .. تنغلق كل بوابة أمل تتعثر فيها طرقى .. أشعر

أن الكون يدور بي .. يهزني يعنفني .. يغرس أصبعه في رأسي .. ينشطر الوجود بين قدمي .. فأتساقط في هوة سحيقة تلطمني فيها الاكف الغليظة وتميد بي الأبنية التي تحشرني فيها أعمدة الحديد المطلي بالقار .. مدببة الأسنة المحمرة من أثر النار الكاوية ..

– مي أين أنت لتكذبي هذه الأقاويل .

مي .. هل كنت تسيرين مع وليد على الكورنيش مثلي .. تجلسين لصقه وتقذفين بحصوات صغيرة فوق صفحات الماء .. تحكين عن تمردك وقسوة أمك .. هل كنت تلتقين به في الصباح الباكر .. هل مشيت معه ساعات طويلة تلفين وسط البلد وكوبري قصر النيل وكوبري الجلاء وشارع النيل .. هل أكلت معه فطائر اللحم وكؤوس الأيس كريم .. هل أمسكت أصابعه عند سور مبنى الأوبرا ..

هل قلت له .. أحبك مثلي .

هل دس أصابعه في كفك .. هل لمس شفتيك .

مجنوناً كنت .. وغبياً وأحمق بالحب الملون بأطياف الآلهة .. وألقاها .

– مالك .. ماذا بك ..

وأزعق فيها وأصرخ بكل ضعفي الغاضب ..

ترمقني في عنف حقيقي وثورة جامحة .

– نعم كنت أحبه .. واختلفت معه وتركته .. وأنا الآن أحبك أنت وكيف تصدق هذا الكلام بمثل هذه السهولة .

هل تقدر ماذا تقول ؟

هل تفهم اتهامك ؟

أرق وأضعف .. وتسفر قشرة الغضب عن بركان حبي .. وأقول لنفسي .

– ماذا لو أحبت قبلك .. المهم أنها لن تحب بعدك سواك ؟

ماهذا الغرور الريفي الجامع .. أشعر أنانيتي كاملة .. لا أحب أن تمد التحية المرتاحة المتهللة لأحد .. أكره اندماجها مع فريق من الصحاب . أخشى تبسطها مع الآخرين .. أرفض اهتمامها بصاحب أو صديق .. أشعر بغيرة تمزقني قطعاً من الحساسية المفرطة .. يتلون بدني .. ويتبدد كبدي وأحبها جداً ..

أنوب في هواها - كأنني قطعة من شمع تصهره أنفاسها الدافئة - أحن إليها ..

- وأتمنى أن أرفعها فوق صدري .. تسير محلقة بأقدامها الصغيرة .. فتضغط على قلبي .. ويتلون جلدي بعلامات مشيها .. بآثار أقدامها .. لكنني أنفض عنى سحرها .. وأقاوم بأصابع ضحلة القوة ..

هذا السحاب الضباب المدمر الذي يقذف بجسدي .. عقلي .. داخله .. أحبها لكنها مختلفة ..

تضرب في كل الألغام المنتشرة في عقلي .

أشعر في عينيها شيئاً أقرب إلى الغموض، ألصق بالفرار .. تنفي علاقتها بأي من أحبائها السابقين .

ترفض تماماً أن أزعق وأصرخ ..

تهتف في ..

- اذن لماذا أسير معك .. لماذا أحبك ..

وتدق فيّ طواحين العالم كله ..

- لماذا حقاً ؟

هذا البون الواسع الذي يحجزني عنها . محفوراً أنا بالغيرة والشك المدهش .. اذا ما رأيتها مع أحد تحادثه تكلمه، تبسطت وتعاملت كأن الأمر طبيعي وعادي، وإنا - ببراكين تزلزل هذا الجسد من أعماقه .. وإذا بي أشعر بحزن عميق ولكنها إذا ماداعبتني ودللتني نسيت .. وعامت أفراحي في بحرها ..

وكنت كلما أسلمتنى نظراتها .. خفت من أن تكون حقاً قد التقت بوليد الشامي وظننت أنها لا زالت تحبه .. لكن سرعان ما يرحل كل شك عن ذهنى حين ينفتح قلبى لها وأبوس أصابعها ونمضي فى الشوارع نضحك ونمرح ونتحاور جادين عن عبث الشعر الحديث ..

النيل بسيط طاهر.. ريفى لم تلوثه العوامات والبواخر السياحية. وتبغ النساء ودخانهن على ضفافه، النيل رجل من الصعيد، حازم لا يحب دلع النساء وعبث البنات ولا الأخضر الداكن فوق جفونهن ..

النيل شهم من القرية قادم .. يعرف النهار نهاراً .. والليل ليلاً .. لا يضحك عليه خبث المدينة ويوهمه أن المصابيح الكهربائية نجوم نهارية، ولهذا فهو يرى أن الحبيبة ملك حبيبها وأن الحبيب ملك حبيبته وأنهما معاً موجتان فوق صفحته الهادئـــة .. ولذلك .. أنا أحب النيل .. أحبه جداً .. وأبوح لها بحنينى له .. فتبتسم ..

– إذن اشكرنى أن عرفتك بهذا المكان ..

كنا نجلس على النيل مباشرة فى محل افتتح حديثاً .. بسيط صغير، أرض ترابية سوداء .. وموائد خشبية متواضعة .. مقاعده من الخيزران اليدوى .. ويمتلئ المكان بالأحبة من طلاب الجامعة ويقف فى نواحى المكان شبان صغار السن، يقدمون الطلبات والمشروبات للجالسين .. ألمح مجموعة من العشب الردئ يقف قبالة مائدتنا عند النيل .. أغير نظراتى إلي قبلة أخرى .. بيوت بيضاء هناك على الشاطئ الآخر .

قالت : – صرت أكره فهمى شاكر من حديثك عنه ..

– والله لا أعرف هل أكرهه أم أتعاطف معه .. هذا الصنف من الرجال الذى قدر له أن يقف فى منتصف السلم لا صعد ولا هبط .. وربما تحطم السلم فوق دماغه .

- كنت أريد أن أسألك سؤالاً أخشى أن يغضبك ..

- لا أستطيع ، أن أغضب منك أبداً .

- يا سلام .. كيف اذن زعقت وصرخت فى وجهى منذ أيام .. إسمع لم يحدث ابدا أن تكلم معى أحد بمثل هذه الطريقة، وأنا لن أسمح بتكرارها ..

- وماله يا حبيبتى اذا زعقت فيك ، طيب من يزعق إذن ؟

ثم من حقك أيضاً اذا ما جئت بشئ يغضبك ويخرجك عن شعورك أن تصرخى وتزعقى فى وجهى اذا كان هذا يرضيك ..

- طيب .. سنرى ..

- يا ساتر أتتوقعين غضباً قائماً بيننا مرة أخرى ..

- طالما أفكارك على هذا الحد فلابد أننا سنتخانق ونتشاجر رغم أننى لم أعد أتحمل ...

يسرقنى الحزن منها ..

لماذا دائماً تخطف الحدأة الفرح من صدرى ؟

كيف يسمح الله للبوم أن ينعق لحظة زغردة قلبى .

هل لى أن أسأله تعالى .. أن يرفق بى قليلاً .. قليلاً ؟

- مالك

سألتنى مى

- لا .. أبداً لا شئ .

- لا أنت تفكر فى أمر ما .

- أبداً يا حبيبتى .. كنت تريدين أن تسألينى ..

- نعم .. لماذا تتحدث دائماً عن زميلاتك في المجلة بهذا الشكل لماذا تجرحهن هكذا .. ؟

مفزوعاً

- أنا

- نعم

- كيف ؟

- لا أعرف بالضبط لكن من كلامك أفهم كرهك الشخصي لهن ؟

- أبداً .. والله .. كل المسألة أنني محتج على أسلوب حياتهن ..

- وأنت مالك ؟

- قلت لك مائة مرة كوني مهذبة أكثر .

- أسفة ؟

- أنا لا أملي على أحد أرائي ولا أجبر واحدة منهن على طاعتي .. مالي أنا فعلاً .. لكن لا أطيق هذا التعامل المدعي بينهن وبين الرجال .. لماذا تشيع القبلات وانكسار الحدود ..

لماذا يتحدثن عن الجنس بشكل طبيعي وكأنه الحياء تم دفنه في مقبرة توت عنخ آمون واحتفظوا به للزيارة .

- وماذا في الكلام عن الجنس ؟

- جئنا إلى وجع القلب .

- لا .. حقيقي .. لماذا تفترض سوء النية دائماً بين أي رجل وامرأة عند الحديث عن أشياء خاصة بسيطة بينهما .. إن عقدتك الحقيقية يا حبيبي هي النظر إلى المرأة على أنها امرأة والرجل أنه رجل .. وليس أن كليهما بني آدم إنسان في الحياة لا فرق بينهما .

- أنا لا أقصد سوء نية في الحوار عن الجنس مثلاً .. لكن أقصد الخصوصية التي تمنحها امرأة لرجل ما، كي يتحدثا في الجنس .. هنا تكسر حواجز بين الشئ الخاص جداً وطرحه على حوار عام يمكن أن تلوكه الألسنة

ولعبت فيه الأيدى .. ثم أن فيه أيضاً سوقية شديدة .. ثم هناك الأكاذيب والنفاق والتجارة بالأنوثة والادعاء الزائف، ثم يطفو الاكتئاب عند سطح ماء نفسى ..

فاسألها أن نكف، ندفع الحساب .

ونمشى على الأرض الرملية نصعد سلالم رخامية ..

نقف على الكورنيش ننتظر سيارة أجرة .

تركب وأودعها ..

وأحملق فى السيارة المارقة ..

يا هل ترى تحبنى مى كما أحبها ؟

يا هل ترى ؟

ولكن كيف أحبها وهذا الجنون المحلق فى أفكارها الذى ينبش فى اللحم القلق وفى الصدر الشك والغضب ..

لكنه الحب .. ومتى يسأل الفرد قلبه لماذا تحب ؟

حتى اذا سأله ؟

هل يجيب ..

حتى وإن أجاب .. هل يصدقه ؟

الشاشة بيضاء زاهية .. والستائر ذهبية مطوية على الجنبين .. والهواء مطعم بالراحة والهدوء ، والمقاعد تلوح حوافها فى ظلام القاعة المفتت بالأضواء القادمة من الصور المتحركة على الشاشة ..

يجرى الصبى مندفعاً فوق دراجته فى حالة رثة، خلف مركبة ضخمة مكشوفة تقل عائلات مطرودة إلى الشاطئ، والولد يصرخ ويهذى وراء السيارة – خذونى معكم .. وعجائز يمدون أياديهم له أن يسرع والولد يصرخ .. والسيارة تلهث .. والشوارع خالية بعد الغزو وصوت الصراخ وجرى الدراجة وأزيز السيارة

بصدم الأنن كان فيلم إمبراطورية الشمس قد حلق بنا إلى سكينة مفتقدة ومى نجلس جوارى .. التقط اليها النظرة فاجدها تبكى .. دموعها على الصبى خذلت مقاومتها .. وانسابت مرتين على الخدود الناعمة الجميلة . أمعنت فيها النظر والابتسام والسكوت (حيث تتشاجر معى لو حاولت إخماد دموعها بالتئنيب) وتسرقنا الشاشة من الحياة ...

يندفع الصبى نحو طيارة للإقلاع والجنود اليابانيون يفشلون فى إيقافه، يصل إلى الطائرة المروعة النائمة على أرض المطار .. يلمسها فى حنين العشاق بربت فوق معدنها بشبق الطفولة .. يضع خده على جسدها حالماً .. يلتفت خلفه فاذا بثلاث من الطيارين يرتدون ملابس الطيران، متأهبين لركوب الطيارة، متجهين لها فى خطوات عسكرية منتظمة ..

أفزع على الولد ويرتجف جلدى ..

فاذا بالطيارين يرفعون أياديهم فى تحية عسكرية للولد المذهول من هول العشق للطيران .

ينتعش قلبى .

أشعر أصابع مى داخل أصابعى .. باردة ناعمة خاطفة ..

يدق قلبى بعنف - حينما تشب برأسها عن مقعدها المجاور لى .. وتمد وجهها تجاهى - وتلمس شفتاها خدى .

أؤخذ ..

ترتد رأسى وأصدم ملمسها بخوف الارتباك .

تعود برأسها إلى مقعدها ..

وهى تنظر لى تلومنى .. وتعنف بعيونها كل خلجاتى ..

التفت لها فى عيون معتذرة ولكنها لا تغفر ارتباكى وابتعاد خدى عن شفتيها حين همت بتقبيلى فلمسته تكاد ..

- لا تفعل ذلك مرة أخرى .

تخرج من قاعة العرض إلى الشارع فى لحظة شتوية حانية .

مى تحب الشتاء .. أمطاره وألوانه وسكونه وليله ...

هبطت نحو الشارع وهى تقفز فوق درجات السلم منتعشة متألقة بمقدم الشتاء ..

تفرد كفها للسماء ..

وتحرك رأسها .. تهزها جزلاً

- الله .. لقد جاء الشتاء ..

وتمسك بكفى ..

- هل تحبه ؟

- الشتاء

أتردد .. وأبحث عن أجابة لا تخذلها ..

- يعنى .. رغم أنه أحياناً ما يكون كئيباً .. لقد ارتبط داخلى بمدينتى الصغيرة حيث تكفى نصف ساعة مطر لغرق المدينة بأسرها فى وحل لا مفر منه .. وعطلة لا نهاية لها .. وليل طويل شديد السخف نقضيه فى المذاكرة أو مشاهدة مسلسلات رديئة . حتى الروايات التى كنت اقرؤها فى ليلة الشتاء كانت حزينة .. ثم ما أدراكِ - بشتاء الغربة - وحيداً فى القاهرة أسير فى الشوارع لحظات الشتاء المذلة ووحيداً فى غرفتى المنسية .. وحيداً جداً في حنايا القلب الفارغ الموحش .

استمعت لى وهى تنتقى حبها من «نوى» اختلافى ..

نمضى نحو كافتيريا على النيل (نيلنا) ..

نجلس متقابلين .. هذا هو ما اتمناه دوما وجهها قبالتي أتأمل فيه وأعشق ملامحه وألمس بنظراتي منحنياته .. وألثم بحبي كل سنتميتراته .

ولكنها تحب ان نسير معا .. تقول إنها تسعد بشعورها أننا وحدنا نتحرك فى الحياة .. وما حولنا مشاهد من فيلم سينمائي مبتعد عنا ..

وتسألني

- هل أحب السفر .

هذه المرة اضطر لحجب الحقيقة

- طبعا

- لكنني اعشق السفر - أحبه جدا .. لا أتصور نفسي بدون رحلة وسفر .. كثيرا ما تنقلت مع أبى فى عمله الدبلوماسي من دولة لأخرى منذ صغرى ، الصين اسبانيا .. وسافرت أيضا فى رحلات مـع الجـامعة الى المجر والنرويج .. ومع ذلك لم أسافر لأسوان حتى الآن .

- اذن ليكن شهر عسلنا في أسوان ..

تضحك .. وهناك رنة مستغربة فى إيقاع ضحكتها الأخيرة ..

- مالك ؟

- لا شئ .

- لا هناك أمر تخفيه عني ..

أطوق كفها بأصابعي أضغط على يدها ..

- خبريني ..

- أبدا لقد أرسلت لى صديقتي من أمريكا خطابا أزعجنى وقلقت عليها .. إنها صديقة أمريكية على علاقة حب كاملة مع صديق لها .. ووجدت حبلى .. وهو يريد التخلص من الطفل بينما ترفض هى ..

يلرم شئ ما قلبى ، غريبِ حاد - مزعج (هاهو يتخذ شكلا) ليطحن قلبى (هاهو دوره يتضح) ..

- هل طلبت منك النصيحة ..؟

- نعم

- وماذا قلت لها ؟

- لم أكتب لها شيئا .. المشكلة أن صديقة أخرى تزوجت منذ سبع سنوات حين كنا فى الثانوية العامة .. لم تكن تحب زوجها ولم تملك المقاومة لمصيرها مثل آلاف المطحونات .. الآن هى تحب شخصا أخر غيره .. وتريد الطلاق .. وفجأة تجد نفسها حبلى من زوجها وذهبت معها الى الطبيب ..

- لماذا ؟

- للإجهاض ؟

- أتذهبين مع صديقتك كى تجهض من جنين زوجها .

قالت مندفعة

- أليس أفضل من انجابها لطفل يكرس احساسها بالكراهية لزوجها ..

- إنه طفل من رجل لا تحبه .

أفزع

- يا نهار أسود .. يعنى لو كان الطفل من حبيبها لسكتت ..

اتسعت عيونها غاضبة

- طبعا لا يا سيدى .. كيف تقول ذلك ..

- يا سلام أنا المخطئ فى كل ما يدور الآن ..

- ماذا تقصد ؟

- لا شـ . لا شئ .. ثم مال أهلى انا وحكايات بريد القراء التى تتحدثين عنها بجنون ..

- هل تريد ألا تكف عن كلام الغرام والحب فقط ..؟ ثم إنك تحول كل كلامى الى مواجهة شخصية مع أفكارك .. يجب أن تعرف ان أصدقائى مهمون فى حياتى جدا .. ومع ذلك لم أعد اهتم بهم منذ لقائنا .. وليس معنى حبى لهم موافقتى على مواقفهم لكن ماذا أفعل وهم يلجئون لى ..

- أجمل ما فيك .. وأكثر ما فيك قلقا لى .. هو هذا الاهتمام الكبير بمن حولك .. ربما أكون أنانياً عندما أطلب منك أن تكونى لى فقط أنا أولى باهتمامك ورعايتك وحبك يا حبيبتى ..

- انا لا أستطيع التفرغ لك تماما .. إن الحب ليس استيلاء يا حبيبى .. اننا نحب بعضا ولكن لكل منا حياته واهتماماته .

- لا يمكن .. المفروض أننا روح وجسد واحد .. كيان تم صناعته بمباركة الحب .

- انا لا أومن بذلك ..

- مى .. بم تؤمنين .

مندهشة مستنكرة .. غاضبة

- فى لهجتك تهكم أرفضه .

أعود مائة خطوة للوراء متراجعا ..

- ابدا .. أنا أسأل فقط

- ألا تعرف .

كنت اشعر جوابها ، إنها تؤمن بى أنا وكنت فرحا بالتوقع أملا بالدهشة .

- يا حبيبى إننى أؤمن بما أراه صحيحا .. بما جربته لا الذى سمعت عنه وقيل لى ..

حلقت فى النافذة المطلة على النيل تحجزه عنى مشربية خشبية من مربعاتها تلوح قطعة شراع .. جانب مركب .. مساحة ماء ونظرت حولى ..

- الحساب لو سمحت ..

نسير .. النيل عن يسارنا .. والبلاد عن يميننا .. والعمر أمامنا .. انا آسفة اعتذر عن إغضابك يا سيدى ..

بحثت أصابعى عن كفها .. وجدته .

عانقت كفها كما كف تنقذ من الغرق .

- كم أحبك

وأعشق ثرى الارض من تحتك .. وأضم صدرك فى رئتى .. وأرشق عودك فى قلبى وأحبك جدا حتى نهايات العمر وحتى انطباق الأفق على المجهول .. وحتى بدايات الأساطير والتقاء الحكايا .. أحبك يا مى ..

- وأنا أيضا والله أحبك .. لماذا لا تصدق ؟

أودعها عند ناصية الشارع ..

تتكتل الأضواء الأنوار الأنهار فيها .. وتصعد إلى منزلها ..

تتركنى بقعة من ظلمة وسط نهار أفل ..

وأهتف لنافذتها المغلقة ..

- قد لا أصدقك .. ولكننى أعبدك باستئذان خاص من عفو الله .

- مى

ترفع وجهى بأناملها لترانى

اجثو على ركبتى أمام جلستها .. أضع رأسى على قدميها .. القلب ملهوف والكف مرتجف والشفاه ملعثمة .. واللسان لاهث .. والعرق غزير .. والعيون جاثية .. ألثم طرف فستانها ..

ألمس كفيها

أغرس رأسى فى ركبتيها ..

وهى تنظر لى عاشقة من جلال الحب الى جمال اللقيا ..

من نبضة القلب إلى تحليق الجسد .

تضع ذراعها فى كتفى .. تحيط ذراعى .. تستنهض جلستى الراكعة .

- قم

فأقوم

تجلسنى جوارها .. تضمنى بذراعيها .. تقترب من وجهى بأنفاسها وعطرها وتجسد الملائكة ..

- ضمنى ..

فأضمها وأزرعها فى احشائى ...

وأصعد بها وتصعد بى .. وتفرد شفتيها فى حلقى .. وأقبل خديها .. شفتيها .. وأدفن رأسى فى عنقها ..

وأرتقى بها وألتقى بالله فى عليائه ..

تهيم بى النشوة

وتتعانق الأصابع والصدور والألسنة ..

أذوق طعم أسنانها .

وأشرب من رضابها .

وأشم عطرها ليشق عروقى ويسرى فى شراييني توقى .. وأضمها فىّ ..

أضغط على عظامها وانفرس فى لحمها وتحيطنى ، تطوق عنقى..

وتلف ظهرى .. وتعود برأسها للوراء لأدس وجهى فى جيدها وأمص شذاها فراشا أطير .

وأنام على كتفها ..

وفى حضن دافئ صاف نهتز ونلف ونخطو فى اتجاهات الكرة الارضية ونسمع فيما لاصوت حولنا ..

موسيقى عنبة ، خرير ماء وشوشة طير ، دعاء كروان ، وغناء عبد الحليم حافظ .

أرفـع أصابعها نحو فمى – أقبلها .. أتنوقها – أنام بخدى عندها ..

– لماذا تغضبنى ؟ لماذا لا تحبنى كما أنا ؟ إننى أحبك كما أنت..

قالتها وهى منفعلة .. وقفت أمام محل الورد .. وأعطت ظهرها للماء الرقراق خلف الزجاج يبلل الزهور المستيقظة ..

– لماذا تحرمنى من التفاصيل الصغيرة التى أحبها .. إنها جزء منى .. أنا من أرتدى البنطلونات والفساتين التى تحلو لى ولو كانت قصيرة .. وأنا التى أتكلم مع من أشاء وأحب ،أصاحب من أشاء .. أنا التى تتحمس للدنيا كلها وأشارك الناس أفراحهم وأحزانهم واوزع اهتماماتى على الجميع وأزور وأتزاور وأهزل وأجد مع أى صديق أو صديقة .. أنا متحررة هوائية مجنونة متمردة ..

لماذا تحرمنى من هذا .. انا أحب كل هذه الأشياء .. ولكننى أحبك أكثر .. وقد أتركها كلها لأجلك لكننى غير مقتنعة ومجبرة تذكر هذا جيدا ..

نخرج حاملين باقة ورد من التوليب ..

عيناها تعطيان لغز صناعة البشر .. تفضان مغاليق الوجود .

– أبوح لها بسرى .

أحبك كما أنت .. أذوب فى ظفر إصبعك .. لكن إيمانك بقناعات وتصرفات معينة يغيظنى .. ماذا أفعل وأنا – فعلا – أنانى .. هذه العقدة تنهشنى مع غيرتى المجنونة على من أحب ..

– لم أعد أطيق هذه الغيرة .. هذه الطلبات المزعجة التى تحاول بها ان تغير سمتى .. شخصيتى .. الحمد لله انك لم تطلب تغيير لون بشرتى .. اذا كانت تصرفاتى لا تعجبك .. لماذا أحببتنى اذن ؟

– لم أكن أدرك أن كل هذا الغضب داخلك .

انى أعتذر بقدر حبى ..

كما اننى أعجز عن فهم هذا الاحساس المارد داخلى ، الغيرة يامى من الحب ..

- الغيرة من حبك أنت .. لا من الحب ..

- ماذا تفعلين وقد وهبك الله حبيبا غيورا رجعيا متزمتا ...

تزعق فىّ ..

- انا موافقة على كل هذه الصفات .. فقط لا تطلب منى ان أتغير انا .. لتكن كما شئت .. أقصد كما أنت واتركنى كما أنا ..

احلق فى فراغ دائرى يحيط ببناية مرتفعة ، اعلان ضوئي عن مياه غازية .

- ألا يغير الحب الحبيبين .. ألا يعيد تشكيلهما .. ألا يفعل الحب شيئا سوى لقاءات مدبرة .. وحنين يومى وزواج مؤجل .. وفقط ..

أصيبت مى باكتئاب تعلق بصوتها وملامح وجهها .

اكتئاب ضم حساسية أظهرت بثورا فى وجهها ..

احتوى عصبية فى نبرات إجاباتها ..

استفزازا فى تعليقاتها ..

مى .. متغيرة متبدلة ..

أشعر عجزا مزريا عن إخراجها من هذه المشاعر ..

فشلا مروعا به كلما أدركت انمحاء أثرى على أصدقائى واختفاء قدرتى على إسعاد حبيبتى ..

أدعوها الى الغذاء فى مطعم جمعنا لأول مرة على مائدة واحدة مع بذور الحب الملقاة فى خصوبة مشاعرنا ..

- آسف يا أجمل وأعظم وأروع وأخلد وأنقى وأهم شئ فى وجودى ..

أنا مزعج ومتعب ومخطئ .. وأحبك ..

افعلى كما شئت ..

فقط اخرجى من هذا الاكتئاب الذى يزورك كل فترة دون انذار ويثبت عجزى ويشل قدرتى ..

- لماذا تتصور ان هذا الحزن منك .. قلت لك ألف مرة إن الحب ليس كل شئ إننى لم أكتب حرفا منذ جئت فى المجلة .. وكذلك أنت مكتف ببعض الكتابات الصغيرة .. لكننى لم أحقق ذاتى فى الصحافة .. كما لا أشعر بوجودى هنا فى استقرار دائم وغضب مع أبى وعجز أمى وغياب أصدقائى ، ليس الحزن منك ، إننى أريد أن أسافر ..

أبلع هزيمة جديدة وأحاول الوقوف أمام هدر غاضب ..

- ليكن ..

تومئ برأسها ..

- سأسافر لليونان .. أمكث هناك أجازة ١٥ يوما وأعود بعدها لعل هذا يخرجنى من الحالة التى أعيشها ..

تركتها عند ميدان التحرير المزعج ..

وأسداسى تتخمس تتربع تتثلث ، تتحول واحدا صحيحا يخزق عينى ويشطر صدرى .

- هل ترى مى ابتعادها عنى سعادة .. هل وصل بى تعنتى وانسياقى وراء احاسيس مضطربة مصطرعة إلى الوقوف عند حافة النهاية .

أطبيعى ما يحدث .. أن ترى الحبيبة فى أجازة عن حبيبها وابتعاد سفر وطول أميال وساعات طائرة وصحاب جدد ووجوه مختلفة وأطعمة لم نأكلها سويا وجلسات على نهر لم نره معا .

أطبيعى ما يحدث

وينهشنى حزن يظهر بأنيابه المفترسة كلما عنّ لى الفرح وأبيت ليلتى مغموما معصورا فى سائل زيتى لزج يزحلق ثباتى ويهز وقوفى ويفرغ نفختى .

وتسألني أمي عبر أسلاك الهاتف ..

- مال صوتك ؟

- أبدا .. لا شئ ..

وأضع سماعة الهاتف ..

وأدير قرصه على فراغ .. برقم هاتف ..

أحقا سترحل مي عني .. أنا الذي لا اطيق ابتعادها لحظة ، غيابها يوما .. لقاءها بغريب دوني ..أحقا ..

بينما انتهيت من فرد أوراقي وشرعت في إتمام موضوع أكتبه على عجل ، وسط نسيان مدهش لهموم المجلة وغياب الوجوه الغبية عن ذاكرتي وانسياب الايام في دفقة ناعسة ناعمة تلخنني من الكل للواحدة مي ..

دخل شاب خمري طويل يرتدى بنطالا جينز وقميصا اخضر ونظارة بيضاوية ورفع فوق كتفه حقيبة سفر صغيرة ..

تقدم نحو مكتبي ..

- صباح الخير .. أنسة مي الجبالي موجودة ..

دق قلبي بعنف واتخذ وجهي لون المفاجأة ..

- لم تحضر بعد ..

إذا مي تدخل صالة التحرير فتجده .. تندهش وتصرخ ..

- حسن

وتقترب منه وتصافحه ويطبع على خدها قبلة حارة

فتميد بي الأرض زلقة تحفرني في المجهول الأخير .. أغوص داخلها في أحشاء القبو المظلم الغليظ الضيق ، وتتخبط رأسي في سقف واطئ ، وتحني قامتي أسياخ حديد وتشقني سكاكين مسنونة .. وأتمزق كما ورق ملصقات السينما

تحت أيدى الصبية اللاهية .. وتقذف وجهى أوانى ماء غامق تبلل كيانى وتلوث روحى ..

جرت وقائع صغيرة .. عرفتنى مى بحسن خالد .. وهى مرتبكة من علمها بضيقى وغضبى الهائج من هذه القبلة المختطفة .. حاولت أن تربط زمام حماقتى أمام حسن .

– حسن صديق الطفولة وجارنا ، وزميلى فى الكلية وكان مسافر أمريكا .. يعمل هناك مهندسا كهربائيا ..

– أهلا ..

مقتضبة منفصلة على قدر انفعالى على اللحظة .

وتركتها ومضيت خارج الصالة ..

تابعتنى بعيون مهتزة وكف مرتعش وتمتمة مقتضبة مع حسن ..

صعدت الى طابق علوى .. ودخلت مكتبا فارغا .. وفتحت نوافذه المغلقة جميعها وسكبت رأسى من حافة نافذة كى أستنشق هواء الشارع .. كى يطفئ وقودا مشتعلا داخلى وانتظمت أنفاسى .. وارتكنت على الإفريز فى وداع للراحة مذهل .

– أولا أنا لم أقبله .. هو الذى قبلنى ..

ثانيا : هذا شئ عادى يا سيدى .. نحن كالإخوة تماما .. ومن قال إن قبلة مثل هذه اشتهاء ومن يضع فى اعتباره أن نية حسن سيئة اذا كان قبلنى أمامك وفى صالة التحرير .. ثم ما كل هذا الغضب .. هناك بدل الصديقة عشرة فى المجلة يقبلن زملاءك دون أى داع وعلى الفارغة والملآنة .. ويم تغضب .. حتى أفرض اننى اخطأت.جرحت احساسك .. طيب تحمل قليلا حتى ينصرف .. لقد سألنى عنك واخبرته عن قصة حبنا وكان يريد أن يحادثك وقال عنك كلاما محترما جدا فهو يتابع موضوعاتك جيدا .. ماذا أفعل أكثر من هذا ؟

هل أنا خائنة لأن واحدا من اصدقائي قبلني بعد عودته من السفر وغيابه عاما عني لقد أوحشته وأوحشني يا أخي ..

ماذا في ذلك ؟

وتركتني وانصرفت ..

هدأ غضبي وانحدر اندفاعي رغم تراكم الاحداث وتصاعد الأفعال في رأسي .. أفزع عند علمي ان حسن كان ممن رشحته الشائعات حبيبا لمي لعدة شهور ثم انسحبت الحكايات ومضت دون تأييد أو نفي .. لكن ذاكرتي استعادت كلامها عن صفات حسن حبيبها الثاني .. دخت تهت .. طلعت روحي .. ثم تسللت عائدا صبيحة يوم .. وانتظرت أن تأتي مي .. أن تتصل بي هاتفيا .. أن أراها .. أن تعتذر وأعتذر لها .. لكنها اختفت ..

مر يوم أول كأنه الدهر .. وأنا أعاند عنادي وأقاوم ضعفي واهدئ روعي ..

وفي اليوم التالي لم أصبر على فراقها ولم أقدر على غيابها ..

أدرت قرص الهاتف .. ثم وضعت السماعة دون أن أكمل دورته .. وكدت أبكي وأحسست دموعي المعذبة تهدر في عيوني ..

وجلست على مكتبي منفصلا عن الجميع .. وجوه من فرط سعادتي الماضية لم أعد أنكرها .. وملامح اختفت داخل طيات مخي .. فحمدت الله وأثنيت عليه وشكرته كثيرا ..

لكنها اليوم تعود .. تصعد الوجوه من خلف حاجز الأراجوز الخشبي ..

وإذا بي وحيدا دونها .. صفرا بغيرها .. وجلا مفقودا .. منتزعا مقلوبا .. مجنونا .. أين مي ..

في اليوم الثالث .. في صباحه الغريب .. أجابت أمها على هاتفي ..

– لقد خرجت .. ذهبت للمجلة ؟

– شكرا ..

ولضممت شوقى تحت أسنانى ..

لكنها لم تأت .. ساعات طوال أنتظرها .. أسأل فى الاستعلامات أدير هواتف كل الأماكن التى تتردد عليها لعملها ..

لم أجدها ..

عدت لأمها ..

- أين مى ؟ --

- لقد عادت منذ لحظات ؟

- جاء صوتها علي الهاتف .. ضعيفا ملولا .. غاضبا ..

- مى .. أين أنت يا حبيبتى ؟ .. لقد بحثت عليك ..

- أبدا .. كنت مرهقة قليلا ..

- هل يمكن أن أراك اليوم ..

- لن أستطيع .

كانت لغتها غريبة رسمية تقطع أذنى قطعا جلدية صغيرة وتلقى إلى النهاية المتعجلة .

- طيب غدا

- ممكن ..

- متى ؟ هل ستحضرين المجلة ؟

- لا ..

- إذن نلتقى فى مقهى على بابا ..

- يناسبك الساعة كم ؟

- كما تشائين .. لنقل ١٢ ..

- ليكن .

نطقتها لاول مرة معى بالانجليزية .

فى الليل لم أنم .

تقلبت بين الأمل والرجاء .. والسعادة والحزن ..

قلقا ..

فرحا

غامضا

مفضوحاً

اؤنب نفسى على اغضابها .. وأكسر عظام غرورى وأنانيتى .. وأدهس غبائى الذى كاد يفقدنى اعز ما أحب .. من أجمل ما رأيت ..

الفتاة التى تغلغلت داخلى .. تسربت فى كيانى ..

ارتدت جلدى وخبأت وجهى بملامحها .

- مى .. يا عشقا مجنونا عاشقا ..

حين تتعلق الحياة عند عقارب الساعة .. تتحول الأخيرة الى مخالب الكائنات الأسطورية .. تنتزع وجوهها من القرص الأبيض الدائرى .. من ضيق السوار الاسود .. وتتفرغ لك .. تنشب فيك سمها وتحفر داخلك لدغها .. وتتخلل لحمك وتقطف وردك تمزق ورقه وتدهس زهره وتفتت عوده .. وتتسلق الحقيقة الي الكابوس ..

أجلس على مقعد خلف المائدة ..

أحس نفسى وحيدا فى الخلاء اللانهائى ، صحراوات الموت المفاجئ ..

سراب العشق المستحيل .. تبتعد المسافات بين مائدتى والموائد الأخرى .. فتبدو منبعجة منبطحة فى صحراء عريضة المنكبين.. شامخة القامة ،، بيني وبين الجالسين حولى من العشاق والرفاق وأرباب الصدف والمتعة العاجلة .. حصى الرمل الملتهب وصبارات الأخضر اليابس وصفار المرض المرعب .. وثعابين تلتف فى الصخور وحر أفزعته أخبار النسائم الوهمية ..

وحيداً كنت ..

متوترا موتورا .. مترددا مردوداً ..

من رجفة الشفة الى انقباض القلب ..

من رعشة الكف الى تقلص البدن .

من الانتظار المر الى الانتظار المرارة ..

أرى عينا نسوية فاجرة تضع رموشها الصناعية الكثيفة فوق عدسة مكبرة معملية .. فترى قلبى منتفخا بزرقة الحزن الداكنة .. فتبتسم شفتاها المنفرجتان ، وتمسك بأنبوب اختبار اسطوانى ممتلئ حتى الحافة .. تنزع سدادته ، وتقذف بسائل لزج يتساقط قطرات على لحم القلب الوجل .. فإذا بحريق الكي ينفجر فى قلبى .. تصعد الأدخنة .. وأسمع أنين الشواية المحروقة .. فيصرخ طبيب المعمل للفاجعة وتتكسر الأنبوبة فى كف المرأة ويجذبها الطبيب مجنونا يدفعها بعيدا عن قلبى وهمى ..

تضحك فى هستيريا سادية .. ويرفع الطبيب بقايا قلبى على لـــوح زجاجى .. وتند من دموعه عين ..

أمد كفى اليه ..

فتسلم علىّ مى ..

من مربعات الفراغ بين الأقدام والأحذية والوجوه العابرة أمام باب المقهى ... ظهرت مى .

فى المدخل ظلمة ملقاة .. وعتمة نهار غربية تحجب الوجوه وتحجز الملامح ، لكن الوجوه انكشفت عنها .. ترتدى قميصا أحمر بحزام جلدى أسود يحيط بخصرها وجيب سوداء تصل لركبتها .. ونهدها اهتز مشرقه وارتبكت بهجته ..

جلست فى حزم مفاجئ وقسوة الصياد عندما تفرزها عيون المحبين ..

قالت ..

– هل تعرف ماذا سأقول لك .. ؟

التفت أصابعها مع فنجان القهوة السادة رشفت منه رشفتين وأنا متعلق بعيونها أحاول إيقاف دوران الزمن .. أوقف هذا الهدير الموجع داخل كيانى ، أتشبث بحبال الله أن تنقذني من الصدمة القاتلة .. أتبين عيوني محملقة فى صمت انتظار شهادات الوفاة .

أرى حيادها نصلا حادا يخترق بطنى .. توجعت ألما مكتوما .. ازداد نحيبى عندما أدركت أن النصل مسموم وحارق .. يبقر بطنى ويحفرها كأنه يعدها لحشو مكتظ .. انفتحت فى الهواء المحيط بوجهها طاقة محددة بلظى مغلق على قلوب المحبين حين يهجرهم الحب .. وتتفرع من أحداقهم شجرة زقوم ... أخطبوط بحرى .. يصفع الوجدان صفعا .

هذا بعض مما قالته .. تضغط على الحروف وتؤكد الكلمات وتشعر قوتها وشموخ قرارها وصواب سيرها ..

- أريد أن اكون حرة ..

- لا اســـتطيع تحمل أى سؤال عن مجيئ .. ذهابى .. أصحابى - قراراتى ..

- لم أعد أريد الاستمرار معك ..

- مشاعرى تراجعت نحوك ..

- هذا قرار لن أرجع عنه .

- نحن لا نليق لبعض ..

- أريد أن أسافر كما أشاء .. أحب كما أريد .. ألتقى بالأصحاب والأصدقاء .

- لم أعد أتحمل غيرتك .

- الاستمرار مستحيل ..

- أريد أن أكون «صايعة» أصلى لم أجد تعبيراً بالعربية غيره ..

- أعرف اننى لن أجد حبا كبيرا مثل حبك لى ، لكن لا فائدة ..

- هذا ما أريد الآن ولست مسئولة عن المستقبل ..

- سأسافر يوم الجمعة القادم إلى فنلندا .. رحلة شهر من جمعية اتحاد المرأة.

وهذا شئ مما قلته ..

- مى لا أحد يتغير إلا بعد زلزال يقتلعه .. راهنى أننى سأتغير .

- مى أنا أحبك بجنون ولن أتحمل الابتعاد عنك .

- تريثى قليلا ..

- مى .. هل يمكن ان يهدم هذا الحب الكبير ببساطة فى يومين؟

- مى .. أنا غبى وأنانى وغيور ولكننى أحبك ولابد أننى سأتبدل..

- طيب تمهلى أسبوعا واحدا ..

- أنت لا تتركين شبرا واحدا للمرور نحو حل ..

- لهذه الدرجة أنا بالنسبة لك طوق حديدى ما صدقت كسرته .

- مى .. إننى أتفتت .. أموت ..

وهذا بعض مما حدث ...

أومأت برأسها فى ملل شديد القسوة كسر عظمى كما أعواد حطب تكسرها أمى وتضعها فى عين الفرن البلدى ..

تشتعل ..

واشتعل..

ناديت للحساب ..

قامت فى ابتسامة لا أفهم من أين جاءت بها ..

بدت ملامحها لى تتشكل .. يا للغرابة أكثر جمالا .. وابتعادا ..

وقفنا أمام المقهى ..

سألتها أين تذهب ؟

تهربت .. تريد ألا أصحبها فى الطريق ..

فهمت متأخرا ..

اعتذرت

سرت وحيدا

وضاعت مي :

عشرين ألف شظية من زجاج فى صدرى ..

ماء نار تشوى لحمى ..

حزن مدبب يخرق عينى ..

مزقت أوراقها .. خطابات الحب .. صور الذكرى هدايا تحذر من النسيان ، وقفت فى غرفتى مجنونا .. هادرا بالجرح الطازج مفروش الدم والزرقة ..

تقدمت نحو الحائط ضربت رأسى حتى أوشكت على السقوط ..

استندت على حافة السرير ..

مرغت وجهى فى الوسادة ..

بكيت ..

صعد نحيبى حتى أوجع أذنى .. وقسم قلبى قطعتين مضغتهما مى.. ثم ألقت بهما فى سلة القمامة امام مدخل مقهى على بابا ..

تعالَ أنا أحبك ..

اذهب أنا أكرهك ..

وأنهب كلتنى دمية. المسرح السخيف يحكى للأطفال قصة ملوثة بالســــذاجة ..

- مى

وصرخت فى الشقة الخالية ..

فتجابت الجدران والحوائط والذكريات وأوراقها الممزقة ..

هنا .. وضعت دميتها «أمينة» كى تخبرها ماذا أفعل طيلة اليوم..

هناك جلست أكتب لها خطاب حب .. واعتذار ..

وهنا كانت صورتها المهداة لى فى عيد ميلادى ..

وفى هذا المكان نمت فرحا بلقائها غدا ..

وفى هذه الزاوية حكيت لصديقى كل حكاية حبنا المؤلمة ..

وعلى هذا الفراش حلمت بها ألف مرة ..

وصرخت حتى فقد صوتى هويته ..

واشتد نحيبى وطال غيابى وامتدت دموعى تفرش ملابسى .. فراش الوسائد .. ووقعت على الأرض ..

فاقد قدرة مقاومة الزحف الرسمى القادم لتسليم شارات حبى وقصة قلبى وحكايات عشقى ورسم وجدى وصور مشاعرى الدقيقة .

مخذولا ، مذلولا تقدمت بكل الامانات التى أودعتها فى خزانة القلب.

وأعطيتها حراس مى الرسميين ..

وجوه كالشياطين .. وأسماء كأنهم محبوها السابقون الأولون ..

هاأنذا أنضم الى قائمة محبيها السابقين ..

حبيب مى المتقاعد ..

هكذا ترتخى الستائر عن مسرح خال موحش .. أجلس فوق خشبته على

مائدة خشبية صغيرة .. أمامى أكواب أصدقاء رحلوا .. ونصف كوبى ممتلئ بالبيرة المثلجة .. أتذوقها لأول مرة فى حياتى .

أنا مدعى البراءة الفخور بريفية النادمين على فوات صلاة العصر ، وامدد ساقى تحت المائدة .

وأرفع الكوب الى شفتى ..

مالى أشعر بغصة فى حلقى وحزن يكتسحنى ، كيف ضحك على معتز فقال اننى سأحس بانتعاشة وراحة بعد الكوب الأول .. أواجه موتى وحيدا ..

أقوم فأجدنى بقميص أبيض ورابطة عنق ولحيـــة نابتة .. ولكننى بلا بنطـال .. بلا شئ يستر عورتى ..

أقف وسط المسرح ..

أسقط على حاشية مفروشة على عجل ..

أدفن وجهى فيها وأبكى – أبكى جدا .. حتى يعيد لى المسرح الخالى من الجمهور المكتظ بالمقاعد بكائى مرتفعا مدويا .

عارى المؤخرة ..

مفضوح الجسد .

أنهض .. أخلع ما تبقى من ثوبى .. وأصرخ ..

تسقط براءة الرجال اذا ما جعلت مى تغتصب بكارة حلمك وتمضى ..

مى هات بكارتى .. هذا حقى .. انتزعت منى حبا جما وقلبا متسعا وجنونا مكتملا وصدقا منطلقا ومنحتنى قبلة للصباح .. وعناقا للظهيرة .. ثم ماذا حدث فى المساء ..

لماذا فقدت بكارتى ورحلت ؟

مى يا جبالى ..

مترنحا فوق الخشبة وأتزحلق فى عرق غزير عزيز ، انسكب على الارض .. اسقط .. أحاول القيام .. لكننى أسألها ..

– هل من الواجب أن ينهض المهزومون ..؟

– ماذا تقولين لحبيبك يا مى ..

– ألا ترضين اذن بحبيب سوى من يؤمن بالتجربة .. بمن يشرب الخمر ليدرك انه ضرار .. بمن يشك فى وجود الله حتى يثبت له الله شخصيا أنه موجود .. بمن يتركك تدخنين سجائر مارلبورو حمراء ويشعل لك بكبريته ..؟

بمن يدع وجهك الصبوح يتهلل بشرا بمقدم شخص غيره ..

بمن يتركك تفعلين ما تشاءين وتشاءين ما تفعلين ..

ألا تقبلين إذن إلا محبا على الطريقة الامريكية .

ألا يصلح الريفيون للحب يا أميرتى القاسية ..

من يواظب على صلاة العشاء .. ويبكى ليلة القدر ويلثم كف أبيه قبل خروجه فى الصباح ..

أتذهبين الى حضن رجل آخر يا حبيبتى .. أتشتبك ذراعك فى ذراعه .. وتلثمين شفاهه .. أتحرقين أوراقى .. وتلتقين بى فى لقاء عابر فتومئين برأسك أن أهلا وسهلا ..

مى .. يا جبالى

– من منحك كل هذه القسوة .. تحبين الشخص ثم تقذفيه لحظة غضبك .. لحظة ملل قاتلة ..؟

يصفق الجمهور (من أين جاءوا إلى .. أين أذهب)

قام أحدهم ..

– تحمل .. أنت رجل ليس أول حب فاشل فى الحياة ..

يهتف ثان

– البنت لم تخطئ .. لم تكذب عليك عندما كرهتك قالت ومضت ويصرخ ثالثا ..؟

- إسمع ، الزمن سينسيك كل شئ فاصبر .

وعاشرا :

- نم مع نساء .. واشرب الخمر .. وصاحب عشرات البنات واترك الحب الوهمى الذى تعيشه أيها الروائى الفاشل ..

أبكى لهم جميعا ..

وأسألهم مبحوح الصوت ..

- هل يمكن ان يصعد أحدكم فيدارى سوءة أخيكم .. هل أجد لديكم لباسا يستر العورة ؟

فيضجون ضحكا ..

- يا حمار .. اننا كلنا عرايا ..

يهبون فى وقفة واحدة فاذا بالرجال والنساء معا عرايا ..

ألمح فى ضباب الدموع جسد فتاة خمريا يعدو الى خارج المسرح .. فأرى فيه جسدا أعرفه مستورا .. فأهتف ..

- من التى جرت هناك ؟ ..

تضاء كل كشافات المسرح فتغرقنى أضواء ملونة ...

تبدلت الوجوه كلها أمامى فى المجلة ..

صارت ظلمة قاحلة .. ولست لديهم جميعا تعاطفا مشفقا .. رثوا لحالى ومال على فهمى شاكر فى أبوة أحبيتها ..

- ولا يهمك .. أنت الذى فزت .. تأكد اننا لا نخرج أبدا من أية علاقة انسانية خاسرين ..

واختفت مى ..

حصلت على أجازة من المجلة واستعدت للسفر ..

وكان الحزن يملأ المدينة ويعض فى قلبى ويهرسنى ويدوسنى ويعبر فوق جثتى الى المهزلة ..

والحزن عندى - غيركم - حزنى مديد رعديد مرعب طائش سكير يعصف بكل شئ ويجمع العمر كله تحت نصل حذائه ويخطو فوق الجسد المنهك المحلول المفكك .

الحزن عندى التواء فى البطن وسد فى النفس وصد عن الدنيا وعزف عن الحياة وهمود نهائى وغوص عميق وخوض مغرق ووجع لا محدود وحدود مهدرة وسواد مظلم ظالم .. ورؤى ليلية مريضة وحمى سخونة وبرد .. وخيالات ممزوجة بالهواء وفقد للنبض وخلع للنراع ودموع مخزونة تسيل .. وأفكار ملفوفة بالضياع ومدهونة بالتوهة وأغانٍ لا جذور لها .. وسطور متداخلة تقلم فارغ وهاتف لا يجيب وصباح بلا أحد جوارك وفراغ موحش ووحش كاسر يقف على كتفيك وقطار يدوس على صـــدرك . ووهم كاذب - كالحمل - فى نجاة عاجلة وعجل بطئ فى دوران الدم .. وكف مخذولة وخزى مكشوف وسفر متوقع وألم حاد سكينى ينغرس فى أحشائى وأجثو وأسب العالم كله ..

- ماذا تريدون منى ؟

- لا أحد يريدك .. لماذا تزعج الخلق .. تعالَ عندى .

أسمع صوت جدتى قادما من بعيد .. هناك .. تجلس فى صحن دارنا الريفية أعبر ممشى الحديقة المهجورة .. ينفتح باب الدوار الجهم ، بالمفتاح الفرعونى أخوض بقدمى فى ردهة صغيرة ، فإذا بصحن الدار وجدتى العجوز .. ذات الملامح التى يحملها أبى .. كهولتها سيطرت على مسار التجعيدات وحفر النتوءات والجبهة العريضة والأنف الدقيقة والعيون الحمراء الضيقة والشعيرات البيض تخرج من تحت غطاء رأسها الاسود .. وجلستها بقامتها القصيرة وبشرتها البيضاء على مقعد خشبى تضم فخذيها وتصل باقدامها حتى حذاء أخضر ..

الدار ساكتة مهجورة ..

وتكعيبة العنب ميتة كالحطب ..

وأعشاش الحمام فارغة ..

والسلم المؤدى للسطح مكسور .

وجدتي ترتدي جلبابها الأسود الداكن ..

اقتربت منها ..

- ساعة الطلوع كتبوا على العتبة ..

يا ترى نيجي .. ولا نموت غربا

رن العديد يرثيني .. من فمها الذي يتحرك ببطء الموت الوافد .. وحزن يقطع القلب على الحفيد ..

أجدني نائما على مائدة خشبية مستطيلة أمام جدتي عاري الجسد الا ما يستر العورة ، وقد تحلقت حولي نسوة في ثياب سود، وقد ملأن جوانب الدار ، جلسن على الأرض العارية ووقفن مستندات على الحوائط الباردة .. وجدتي صامتة تبكي .

ساعة اللي جرى ياريتك حضرتيني

الغـــربة يا أمــــــة تعـــدلني وتـــكفيني

وتــندب جـــدتي حفيدها بصوت مبحوح ..

يا حكيم اكشف على أمراضي

واطلب من الله أموت في بلادي

وتجيب النسوة المتحلقات .

نادى المنادي وطوح النبوت

روح بلادك يا غريب لا تموت

نادى المنادي وطوح الحرية

روح بلادك يا غريب أبقى

وقامت النسوة فوقفن عـــلى رأسي .. وعلا صواتهن واشتد نحيبهن..

– ليه يا غريب مامت فى واديك   شيعتك كبيرة يعززوك اهليك

وفزعت جدتى .

وقفت ملتاعة

واستندت على كتف سيدة دامعة ..

اقتربت من واحدة تقف مبتعدة ..

– بت البحيرة ماعنديكيش ولوع   قيدى الفتيلة للغريب موجوع

شعرت جدتى جمودا مفاجئا من البنت التى خبأت وجهها فى طرحتها

– بت البحيرة يالابسة الطرحة أمانة عليكى تعطى الغريب صرخة

– بت البحيرة طلت من الحيطة أمانة عليكى تعطى الغريب عيطة

مزقت جدتى طرحة البنت ..

لم تعرف ملامحها لكنها أدركتها .. أدركت مى ..

فانطلقت الجدة صرخة مدوية خارقة اهتزت لها النسوة فاستجبن فى عديد جماعى .

– بت البحيرة رجعى بابك   نعش الغريب فايت على دارك ..

وشعرت باب مكتب مى .. دفعته بكفها فانغلق محكما وأدارت فيه المفتاح ..

لمحت من الزجاج المخربش ، وجهها منشغلا فى كتابة متميزة على جهاز الكمبيوتر ، اغمضت الجدة عيونى المفتوحة .

نامت على صدرى بخدها

قبلت جبهتى بشفتيها الباردتين

وغبت .

(٧)
الـــــوداع يا مريم

ليت الفتى حجر
يـــا ليتنى حجـــر

الصعود الى انهيار الحلم ..

ارتقاء كوبرى الجامعة المطل على النيل يصافحه ثم يصفعه .. حيث الغدر سيد الكونين .. كون للوهم .. وكون للغانية ..

اللهث الى الأسفلت المرتقى إلى سماء يدنسها هواء العابرين ..

أنفاس الخارجين من البنايات للسقوط المدوى من بوابات الهزيمة إلى افتتاح أقواس الانكسار ..

أصعد داخل سيارة الأجرة فوق كوبرى الجامعة ..

النهار مكشوف الأسنان الحادة .. والصبح مشرع على جبهة الحزن الأبدية وقلبى يعانى وطأة الغم .. لواط الهم .. والشمس أصابتها السحب فى الكبد ... والريح يسفر عن عصف الأبابيل الجدد ..

ماذا جرى فى الدنيا .. مى الجبالى مالها هكذا داخلى ترفع رأسها فى سقوطى .. وتخفيها فى هزيمتى .. والليل المطلى بظلام عشق وفرار مى ..

مى التى واصلت دس نعلها فى حبات القلب حين خرجت مع أحد أحبائها السابقين بعد حضوره من أمريكا .. تنزهت معه وظهرت به فى المجلة ، ودعته إلى كوب من العصير فى فندق كنا نجلس فيه عند حبنا المخذول ..

لم تخش حتى من انفلات حزنى الى التساقط فوق الرخام ، الصلب لم تضع فى حسبانها هذا الجيشان المروع من فقدانها ، ومضت فى حياتها كما تمضى أصابع الجراحين بعد خصى حلم الولادة ...

تقيأت كرها للجميلة التى أعطت وأخذت ...

وصرت أشعر بهذا الغضب الكاسر .. السواد المعتم ..

الغليان العالى .. ضيق التنفس .. خناق النفس ..

تقلص المعـــدة .. توجع الظهر حين ينكرها - آخرون - لى عرضا أو قصداً .. لكن كلما عنَّ صباح أراها أمامى فور قيامى .. حال نهوض ، كأنها تنتظر على حافة السرير ..

وعندما تبلل اليوم مياه الدنيا العطنة .. أتخيل أننى قد نسيتها وعند اعتقادى الجازم بالغياب .. تحضر .. وجها .. أو نكرى .. أو عينا أو شفه .. أو طعم قبلة انسحقت فى الفناء المسدس أو كلمة كانت ترددها معى ، أو مكانا كنا نسير إليه ..

حلقتنى مى فى نومى وصحوى - فأنا - لا أنام - إلا بعد أن تدفن نفسها فى دماغى .. وتخلخل كونى ، فألعنها وأسبها وأقذفها بنعوت الغدر والخيانة أرميها بعصير كرهى الحامض .وأغادر حياتى إلى اللعن المكشوف وأخلع ملابسها عنها وأبصق عند القلب ..

وأصفع خدها - الناعم ..

وأمسح أحمر شفاهها وخضار جفونها .. وأهزها الى الحائط .. وأخضبها دمائى ..

وحين تخذلنى قوتى وأغيب إلى حلمى .. تظهر لى فى التماع الوجوه فى جنبات الأحلام المعتمة .. وتلقى كلمة .. وتعبر .. فيسرقنى النوم من الغضب .

ويسحب منى النعاس هدير الكراهية ..

وأستيقظ فتعود حبائل مى لتلتف حول رقبتى وتعدم فىّ أمل انفتاح القلب للدنيا - مرة أخرى -

وأقول لنفسى متى أعود صافيا - جميلا - رائق البال .. ضاحكا .. أداعب أمى وأحضر الهدايا لأخى .. وأنفعل فى الحديث عن الصحافة وأتشاجر مع الأصدقاء حول رواية جديدة .. ونتضاحك فى المقهى .. واسعى لمشاهدة عرض خاص لفيلم يوسف شاهين .. أضحك أضحك كما كنت .. نفس الشفاه ولون الوجه ..إطلاق الضحكة وانفراج القلب .. قهقهتى العالية وصخبى المزدحم بالناس ..

وكلما صعدت فى سيارة الأجرة عابرا كوبرى الجامعة نحو شارع قصر العينى ، مسحت عن عيونى دموعى وتسولت ابتسامتى وأجزمت عودتى لعناق العمر والحلم ..

لكن هذه المرة .. انكمشت وتقلصت تماما داخل السيارة التى عطلتها إشارة المرور المتوقفة وصفوف السيارات المنتظرة .

ضغط السائق على آلة التنبيه ، فأصدرت صوتاً غبيا خمش طبلة الأذن حين استجاب له سائق المركبة العامة بصوت نفيره الشاق ..

قمت عن المقعد منزعجا .. ودفعت باب السيارة .. ووضعت على المقعد المجاور للسائق أجرته .. وصوت .. عابرا الزحام والخناق ونفير السيارات ..

اقتربت نحو الكوبرى فاذا بقافلة من الإبل والجمال العارية دون غطاء أو ستر .. بالأسنام المرتفعة .. واللحم الخشن المكشوف .. الأعناق الطويلة .. والآذان الغريبة والذيول المتقلصة المهتزة .. وأرجلهم فى نحافة متباينة .. تجرى الإبل فى تدافع هادر .. تضرب الأرض الأسفلتية وتثير فزعا فى السيارات التى توقفت خوفا من بطش الهجوم المفاجئ .

كان رجلان من النوبيين يقودان القافلة نحو الطريق الى المجزر الآلى لذبح كل هذه الإبل المتواكبة ..

المشهد فى النهار الأول أقرب الى الكوابيس الليلية .. فقد أغلق الناس زجاج نوافذ السيارات .

وتكالبوا على تجنب طريق الإبل للرحيل ..

والتصق عجوز بجدار بناية خوفا من تمردهم .. وإذا بالنوبيين قد فشلا فى إمساك زمام الموقف .. وتفرقت الإبل وانتشرت وتوزعت فى أرجاء الشارع المؤدى الى الكوبري الصغير .. أمام مدخل متحف محمد على وقطعت الطريق على السيارات تماما .. وقفت الإبل متصلبة .. بينما تدافع بعضها فى عنف صحراوى جلف فى عرض الطريق واقتربت من السيارات وأدخلت أرجلها وسيقانها فى احتكاك حيوانى ..

بدا الفزع مسـيطرا تماما حين ابتعدت بجسدى وحقيبتى عند بوابة المتحف .. وأنا أرى لهفة الرجلين النوبيين فى التماس وسيلة لضبط قافلة الجمال مرة أخرى وقد فتحت إشارة المرور وتوقف سيل السيارات على الجانب العكسى للسماح للجمال بالمرور ولكنها تسمرت .

وأصوات كل النوبيين والنوبة تحجرت فى حلقهم ..

وارتجفت أكفهم تصفع عنق جمل .. أو تهز فخذ آخر .. وتذكرت صديقى جارى فى شارعنا بالبلدة .. عندما اندفع جمل عابرا نحوه وضربه بقدمه فتطار سنتيه وقد انفجر الدم من شفتيه ونحن اطفال نحتمى بالعيون المغمضة عن رؤية الفاجعة .. وأجرى نحو أمى .. اخبـرها أن الجمل الذى ضرب صديقى يظهر مرة ثانية فى اخر الشارع .

نجح النوبيان أخيرا فى تحريك عدد من الجمال لعبور الإشارة وتكاسلت الجمال الاخرى فى العبور ولكنها تحركت وسط احتفالية من أبواق السيارات ولكن جملا عجوزا طويلا ضخما متدلى العنق ... اقترب منى حتى أوشكت على الصراخ رهبة وخوفا .. وحشرنى نحو بوابة المتحف المفتوحة فحاولت الجرى ولكن صوتا حذرنى حتى لا يطاردنى الجمل ..

تسمرت مكانى ..

وحملق بعيونه فىّ .. وأنا مفكوك العصب محلول الرئة ثم استدار نحو قافلته ليلحق بها نحو النبع الأكيد ..

ولم أستبين طريقى فى سحب دموعى المؤجلة ..

وعند نهاية الطريق كانت الجمال فوق كوبرى آخر فى اتجاه المجزر ..

★ ★

دخل حتى وجهى وزعق فىّ

– أريدك فى مكتبى ..

قالها عصام وهو حازم فى صدق النية البرئ ..

قمت عن مكتبى وسرت خلفه وهو مندفع كلّه يسير نحو غرفة تحقيق بوليسى .. دخل وأنا خلفه ..

أغلق الباب ..

واستدار نحوى ..

– ماذا بك ؟ كيف تستسلم لهذه الحالة المقرفة .. يا ابنى إن أيام فرحك أقل عشرين مرة من أيام حزنك ما الذى يصيبك .. ليس معقولا كل هذا من أجل فتاة .. مع احترامى فلا واحدة تستأهل ما تفعله الآن .. انظر لنفسك فى المرآة إنها قصة حب فشلت خلاص .. ماذا جرى فى الدنيا .. كثيرا ما أحببت بدل الواحدة أربعة وفشلت وتعذبت ثم نسيت وانغرست فى شغلى وحياتى وعوضنى الله زوجة عظيمة ..

ماذا تفعل فى نفسك ..

مى لم تكن تنفعك أبدا .. انها واحدة من مكان آخر وعالم ثان مختلف عنك تماما .. ماذا كنت ستفعل حين تريدها متفرغة لك .. أو لعملها فقط .. كيف كنت ستطلب منها أن تحفظ ابنكما اذا انشغلت عنه .. إنها هوائية لا تريد سوى حريتها وحياتها فقط .. لا تطيق التزاما لأحد واليوم عرفتك وغداً ستعرف عشرة مثلك ..

لماذا تصلب نفسك على صليب من صنع خيالك لقد غارت فى ستين داهية .. المهم الآن الذى يقف أمامى مهزوما ومكسورا ولاعنا الدنيا كلها ..

لا - يا سيدى - التفت لعملك الذى نسيته .. أين تحقيقاتك الصحفية .. وموضوعاتك التى كانت تهز الوسط الثقافى كله .. لماذا انشغلت عن تلميع اسمك .. والتفوق الصحفى ..

إننى لم أقرأ لك موضوعا واحدا لافتا منذ شهور .

كان عصام مندفعا يضرب فى كل جنبات الحلبة .. وأنا أتلقى لطماته وقبضات يده فى داخلى نارا ملتهبة .

صمت كثيرا .

وشعرت أن طائر الرخ الأسطورى قد حط فوق صدرى .. وأن شيئا لزجا ثقيلا يدخل فى بطنى .. أو يخرج منها .. وإذا بى أنفجر فى بكاء مر .

أجهش فى دموع مسكوبة على البلاط وذراع المقعد وسطح المكتب وبنطالى الأزرق وصدرى المفتوح ونظارتى المضببة بالنحيب ..

ارتبك عصام ..

قام فأمسك رأسى ..

- أفق يا حمار .. إنك تضيع نفسك .. ملعونة مى وكل أحزان الدنيا .. لو دمرت إنسانا مبدعا مثلك ، شابا كالورد .. لماذا يذبل الورد مبكراً فى بلدنا هذه الأيام .

وقلت فى حنايا نحيبى ..

- اسأل مى ..

الليل فى شارع قصر العينى على قدر هدوئه على قدر قسوته ..

الوحشة تتعشى بصدرى ، تلكلنى فى قرقعة عالية ..

انفض الصحاب فجأة عنى وأنا أتوق لهم - ألتمس عيونهم .. أرفع كفى حتى أعانق ابتسامتهم لكنهم رحلوا انفردوا بهمومهم واحتياج الحياة اليومى ربما لم يعد أحد منهم يطيق حزنى وغمى وانفعالى المجنون ونقمتى على الدنيا - وناسها - لم يملكوا قدرة الصمود امام اكتئابى فرحلوا ..

وشعرت هذه المدية العجيبة تشق البطن ، وترشق العذاب المؤجل للآخرة ، أحسست هذا الكحلى الغامض الذى يكسو جلدى ويمتشق عصبى، ويدق فى الأحشاء لحن الهزيمة المبكرة ...

جنود الحراسات بسجائر ماكولة - البوابات الحديدية المعلقة - السيارات المارقة ، الأسوار العالية - البنايات الفارغة من الأضواء ..

المحلات فى زحام ليلى مهذب .. محطات المركبات العامة التى تخلو من لهفة المنتظرين .. الصحف فى طبعاتها الليلية .. السماء الغائبة .. الأشجار النحيلة الأسفلت الغضنفر .. النسيم الثقيل ..

أقطع الرصيف موحدا فى التئام مدهش مع الانتحار ..

أخشى عودتى لمدينتى الصغيرة فيسقط حزنى فى حجر أمى وتنتشر جروحى على جلودها ويغمسون خبز الصباح فى دموعى المبللة .. أخاف تعرية عصبى الكهربى من تحت جلدى الى أكف هذه العائلة الرائعة .. سورة يس لأبى وسؤال إخوتى ومداعبة أخى الصغير - فينتقل لهم صعق الحزن الكئيب - وكنت مرعوبا من لقاء نفسى فى ساعات اليوم الطويلة التى تمطت واستطالت أكثر فى هذه السواد .

صارت مأساة جاهزة للحضور كيف أقضى يومى .. كيف أكسر التـــواصل مـــع المـــوت إذا ما انفردت بنفسى - أبحث عن أى شئ فلا أجد ..

رفاقى هل ماتوا ؟

لماذا تخلوا عنى وخلعوا عنى ثوب البطولة . مزقوا أسطورة المتميز الذى يحتفى به الجميع ويحتضنه عناق الأصدقاء ومضوا ..

كل إلى وجهته ..

وتركونى وحيدا لصقر همجى ينهش فى قلبى ، ويصعد بلحمه إلى السماء يدخره للفجر القادم ، وحيدا لصقر لا يرحم .. وفشل لا يقفز .. ومنتفخات الهزيمة مع حبى الأكبر الأعظم الأوسع ..

مى

الإله الذى غضب على عبده فأبقاه فى جوف حوت .. مات هذه المرة ..

هل كنت أعتقد انهيارى هذا عندما تخيلت ابتعاد مى ... ؟

إذا كان قلبى الآن معبأ بكراهية صماء لهذه التى لعبت بقلبى واستكانت لهوية قلبها المجهولة .. وركبت جواز سفر مشاعرها الى الآخرين .. هذه المائة وستون سنتيمترا (طولها) الذى شطر وجودى رأسيا .. هذه الـ .كيلو جراما (وزنها) التى وضعت وتدها فى كيانها لأرتبط بالأرض الموحلة بمستنقعـــات الغربة والوحشة ..

إذا كنت كذلك فلماذا أنا هكذا ؟

عصام داس على دمامل جروح النفس وطلب منى أن أنشغل بالعمل ، أى عمل - كيف أجرؤ على الكتابة وقلبى سبورة سوداء كتبوا هم فوقها فاشل مهزوم مغتصب ، أنانى وغيور ومغرور، يطالب الدنيا أن تنتبه لحبه وتستيقظ لألمه .. وتربت على كتفه .. وتخصه بقبلة عطف وتحية مناصرة .. ويتحلق حوله الأصدقاء يخففون جراحه ويسبون حبيبته الغادرة .. ويلعنون الظروف التى لم تفهم قدر هذا الشاب ..

دع الناس وشأنهم ..

ابتعد عن فرحهم بجرحك .

أنت الأجرب الوحيد على أرض الجلود المسلوخة ..

فالحياة وهم الموتى ..

والبشر تقيحات الأرض السابعة ..

والأنانية انت ..

والغباء عقلك .. أنت ..

واللواطى قلبك .. أنت ..

فلماذا تعصر دموعك على جراح الناس .. ؟

من الذى يتحمل سقوط فرس عشق من ركبه ؟

العشق تهمة القرن – الزمن ..

وسجن القرن – الحياة

وعقوبة القرن – الوطن

والفرح خطاب – تاه فى بريد العتبة .

يا أيـــها الـــذى لا يملك بطولة انتحار الجسد من الحزن المسيطر ..

انبح قلبك أو إخصه ..

يتخلل هواء محطة مترو الانفاق – معاد الصياغة – صدرى .. يتسرب إلى رئتى – تشعر ضيقى وأحس ضيقها – يربت على أنفاسى المكورة ..

فرارا من الحياة – وعرقى اللاهث – فرارا إلى الحياة وتشكل مربعات جدران محطة المترو حائط الدنيا أمامى .. الدقيقة الملونة المزينة الخادعة الهشة .. من يمسح عن الجدران ألوان جفونها وسواد «المسكرة» وأحمر الشفاه ..

صعدت إلى عربة المترو متعجلاً خائفا من الانغلاق الآلى للأبواب.

فيما يدخل تحت تصريف القدر والكومبيوتر .. والسائق الطائش كانت العربة دون الامتلاء الكامل بالركاب ودارت عيونى دون قرار نهائى بالجلوس فآثرت الوقوف مستندا على عمود حديدى .. أحلق فى الوجوه . المقاعد .. النفق .. الوجود .. النوافذ .. الدنيا .

التفت نحو رجل يضم ساقيه وقدميه تحت المقعد الأحمر . ويدفس رأسه فى

صحيفة المساء جرت عيون على العناوين الضخمة عن زيارات وتوصيات الرئيس ومقال افتتاحى عن الرئيس أيضاً .

ثم انفلتت نظراتى نحو خبر بالأحمر العريض ..

ظهور العذراء فى مصر القديمة ؟

نقشت الحروف دهشتى على ملامحى واقتربت نحو الرجل بصحيفته ..

أدرك إمعانى وتفحص أمرى فإذا به يكتشف اهتمامى بالخبر ومحاولتى قراءته بصعوبة ، حدق فى غضب ..

– المحطة القادمة فيها كشك لبيع الصحف ..

توترت من غضبته . وأومأت خجلا وتراجعت إلى العمود الحديدى أستند اليه .. لكن المترو توقف عند المحطة الأخيرة فى نفق تحت الأرض .. التصقت بزجاج الباب حتى انفتح

– هبطت الى المحطة ..

كان بعض ركاب الليل الأول قد هبطوا معى إلى الرصيف .. وتحلقنا حول آلة خروج التذاكر ..

فتاة تقف فى محاولة لاستخدام الهاتف ذى العملات الفضية ..

تفشل فى المحاولة وتعيد الكرة بينما ينتظر شاب انتهاء دورها ..

راكب يسرع نحو الدخول إلى الرصيف للحاق بالمترو القادم ..

يصطدم بكتفى المتباطئ ..

يعدو نحو الآلة .. بينما تسمرت محدقا فى الفتاة كأنها تشبه مى بقميصها الأحمر وبنطالها الأسود .. بقامتها القصيرة وعودها النحيف بإصرارها أمام الهاتف .. بقلقها من فشل الاتصال ..

لما أدركت أن خيالى غنى إلى حد الفقر عند التوقف أمام صورة مى وتذكرت أنها – الآن ربما كانت فى صحبة فتى أجنبى يرافقها إلى محل يطل على

نهر هناك .. يحتسيان عصير الطماطم – الذى تفضله – وتحكى له عن تقاليد وطنها وتعصب وطنه .. وعن ترحيبها بالسفر إلى مقاطعة مجاورة لمشاهدة متحف وحضور ندوة ربما تجلس الآن معه ..

وربما تجلس مع غيره .

وربما تتذكرنى الآن .. كما أذكرها .. وتقول اننى قد اكون على مقهى أو فى المجلة أو أسعى لنشر قصة .. ولكنها لا يمكن أن تتخيلنى مع فتاة أخرى على نهر آخر ..

مى هذه الشيطانة تعرف أننى أسيرها مع رحيلها .. وربما تدرك ضعفى وانسحاقى وخجلى وعورة حزنى التى تبعد عن الناس والنساء .

– من يوم ماعرفتك وأنت تتفرج على الناس كلتهم فى مشهد سينمائى ..

فوق محطة المترو أخطو على أسفلت – ليس للعاشقين – أصعد نحو رصيف – ليس للآمنين – أمر على بيوت – ليست لى – أعبر وجوها – ليست معى – أنادى من لا يسمع .. وأسمع من لا ينادى وتزاحم آلامى أغنية لأم كلثوم تطاردنى أينما وليت وجهى .. منذ كنت – هناك – فى بلدتنا صغيرا أشترى صحفا ومجلة سمير وحتى اغترابى القاهرى القاهر .. كلمات الأغنية تركب ظهرى .. وتصد أننى عن غيرها – لماذا تتحدى أم كلثوم نسيانى .. هل قال لهم أحد اننى الهش المنكسر.

– كلمونى تانى عنك فكرونى ..

ها أنا أسمعها واضحة صاعدة من مذياع سيدة تبيع النعناع ..

آه .. هنا توقفت أنا ومى فى طريق عودتنا من المجلة نشترى حزما من أعواد النعناع .. برائحته الطازجة .. وضعته فى حقيبة من البلاستيك وضحكت ..

– سأدخل لأمى بهذه الهدية وستفرح كثيرا بها ..

ترفع الحقيبة لوجهها وتشم أعواد النعناع .. تمررها نحو أنفى ..

– الله .. لقد كان أبى يزرعه فى حديقة منزلنا .. لكنه أدرك أن الأعشاب

دماغى فارغة .. وروحى مهدودة وعزيمتى للعمل فى الحضيض ..

- هذه حالة كلنا مررنا بها المهم ان تعيد نشاطك ولا تنس أن فتحى النحـــاس ومحمد الطحان يريدان تحطيمك عند أقرب كسل والنزول عليك بالسكاكين .. لماذا يكرهونك الى هذا الحد ؟

- انت أدرى ..

- لكى تحرم وتسمع كلامى بالحرف .. هذه الأيام أنت تبتعد عنى وشكلك تتخذ موقفا تجاهى .

لم أشأ الخوض فى حوار - جف منذ زمن - لكن فهمى شاكر واصل الحوار ..

- على العموم فكر فى موضوع .. اسمع .. هل قرأت خبر ظهور السيدة العذراء فى كنيسة مصر القديمة .. الخبر منشور اليوم ..

- يعنى .. قرأت العناوين فى المترو صدفة ..

مد يده فى أوراقه .. أعطانى الصحيفة ..

- اقرأ الخبر وانزل اعمل موضوعا عن الحادثة ، المهم يظهر اسمك هذه الأيام فى المجلة قبل أى قلق من البعض تجاهك .

فى منطقة وسط بين الحماس والتراجع ..

- ماشى .. سأنزل مصر القديمة وربنا يسهل ..

أغلق مكتبه .. ودعنى فى الردهة .. وسرت معه حتى ركب المصعد ..

بينما عدت الى صالة التحرير بأضواء الليل ووحشته وقبضة الحزن تلكم وجهى ..

أضواء الكنيسة خافتة وسط هذا الليل المسيطر .. المبنى من بعيد فقير المعمار .. لا يبدو مثل كنائس كثيرة مزدهرة بالفن القبطى الذى تؤكد مبانيها معانيه ..

دون جلاء شديد .. يبدو البناء رماديا أو فى اقتراب دقيق من الرصاصى الخفيف .. سرت فى تعجل الطريق الاسفلتى الضيق المؤدى إلى الكنيسة كما شرح لى .. لكن عند اقترابى من المنعطف الذى يكشف المبنى كاملا اصطدمت بحشد من الناس تزأر بهم ساعة الليل المتأخرة . لم يكن الخبر قد انتشر الى هذا الحد منذ نشر ظهيرة اليوم الى هذا التوقيت .. لكن ازدحاما حقيقيا بدأ ينكشف لى حين غصت فى جمع من النساء لابسات السواد جثن ملتصقات بالجدران المحيطة بالكنيسة التى باتت رغم قربها بعيدة حيث أخليت الساحة أمام البوابة السوداء الحديدية الطويلة دون اتساع رغم المساحة من التراب غير المرصوف لكنها معبدة .. يقف عندها جنود شرطة وزحام خلق وسيارات نصف نقل وعربة تشبه سيارة الاسعاف أو نقل الموتى .. أشجار نحيلة تائهة فى الظلام شهر الكامل .. تهتز أغصانها خلف سور قصير اذا ما قورن بالكنائس الأخرى .. ذكرنى المكان كله بكنيسة بلدتنا الصغيرة . حيث كنت أمر على منزل صموئيل صاحبى فى الفصل حيث لم نفترق ست سنوات من فصل أولى اول الإعدادى وحتى تخرجنا من الثانوية العامة ..

كنت دائما فى الفصل الوحيد الذى يجمع المسلمين والمسيحيين فى المدرسة .. وكان أصحابى يقترحون فى بداية عهدهم بى .. أن أنتقل من فصل المسيحيين لأنضم الى فصل كامل من التلاميذ المسلمين لكننى - فى كل الاحوال كنت أرفض ..

أبى أول من شجعنى على مصادقة زملائى المسيحيين .. كان دائما ما يؤكد أنه لا فرق بيننا وأن كل ما يقوله زملائى الآخرون تعصب لا معنى له ، وكان يحكى عن عمى مملوك الذى سكن فى منزلنا سبع سنوات كاملة ، كنا فيها أعـز الجيران والإخوة .. وكيف يوم هاجر الى الأسكندرية بكت الأسرتان بكاء مرا .. واذكر معه نشأت صاحبى ابن عم مملوك الذى كنت أحبه جدا ونقوم معا باللعب فى الشارع وادفع عنه حين يشتد عليه غباء الأطفال ..

وزارنا نشئت بعد هذه السنوات قادما من الأسكندرية لإستخراج شهادة ميلاده واستقبلته عند عودتى من القاهرة ومفاجئتى به نائما على سريرى إستقبالا أدمع عيونه وأبكى أمى ..

كنيسة بلدتنا الكاثوليك تختلف حتما عن الارثوذكس وكنت أحب الكنيسة الاخيرة لقربها من منزل صموئيل ومرقص ثم إن والد مرقص كان قسيسا فيها .. وجميع أصحابى المسيحيين كانوا من الارثوذكس أما الآخرون من المذهب الكاثوليكى فلا أفهم لماذا لم تمتد بيننا جسور الصحبة كما امتدت مع مرقص وصموئيل ..

كانت العربة تجرها الأحصنة تعبر شوارع البلدة تحمل تابوت أستاذ إسكندر والد وجدى صديقى وأعز من سار معى فى شوارع البلدة .. كنت ألمحه باكيا فى صف طويل من البشر جئنا جميعا الى جنازة أستاذ إسكندر .

وكانت البلدة كلها تعيش حزنها على خفة ظله ودقة علمه ونجاح حياته وأدب أولاده وحسن معاشرته ونصاعة سيرته ..

دخلت الكنيسة حيث الساحة الصغيرة ، استقبلنا فيها بعض أقارب أستاذ إسكندر وأشاروا لنا إلى المقاعد المرصوصة والمتحلقة فى ساحة الكنيسة للمعزين المسلمين الذين توافدوا الى المكان .. فى حين كان المسيحيون يدخلون إلى قاعة الكنيسة وقد ظهرت من الباب المفتوح المقاعد يجلسون فوقها يستمعون الى الموعظة بينما وقف كثيرون حين عجزت القاعة عن استيعابهم ..

لم يعترض او يندهش أحد حينما قمت عن مقعدى فى ساحة الكنيسة ودخلت الى القاعة حيث رأيت التابوت يتصدر الكنيسة..

كان المشهد مزيجا من التقديس والروحانية والغرابة معا ..

عصافير كثيرة تعشش فى سقف الكنيسة وتصدر زقزقتها آمنة رغم اضطراب أصواتها المتداخلة .. وإضاءة موزعة فى خجل بين جنبات الكنيسة وفوق الرسومات القبطية للسيد المسيح والسيدة العذراء والحواريين وهذه النقوش

المرسومة ببدائية صانع ريفي الأصول . بدائي الصنعة ، وكانت الوجوه صامتة تنصت لتراتيل مجموعة من الشباب الذين يرتدون ثياب الرهبان بيضاء وسوداء وبينهم القسيس بصوت منغم دقيق رفيع يشبه آلة موسيقية منفردة ..

لم أفهم التراتيل لكنني أحسست حزنها وربما حزني هو الذي أحسها .. ولمحت بين المرتلين مرقص صاحبي بجسده شديد النحالة وسمرته الفاقعة وطفولة ملامحه مندمجا في أداء مهمته .. على حين كان وجدي دامعا في الصفوف الاولى إنها المرة الوحيدة التي أرى فيها وجدي إسكندر حزينا .. هذا الذي يشتري دمعه وحزنه ووجع القلب بابتسامة باردة وهدوء غريب سمح له بإشعال النار في درج الفصل الأخير وانا أجلـس بجواره وحين ســـأل المدرس عن سبب هذه الحريق لم ينطق أو يهتز لولا فتنة زميلنا التي كادت أن تؤدي بوجدي الى الرفت من المدرسة .. اذا لم ينتبه المدرس الى انه ابن الاستاذ إسكندر .. فوبخـه وتوعده بالشكوى لوالده .. لم يهتز وجدي ولم يستطع ان يكبت انفجار ضحكة عندما استدار المدرس وأمسكت بطني من الضحك خشية الفضيحة والعقاب ..

كان وجدي سمحا طيبا حين يخرج مع مرقص وصمويل وبقية زملائنا المسيحيين في حصة الدين .. حيث ينفرد بنا مدرس التربية الاسلامية .. بينما ألمح من نافذة الفصل وجدي ومرقص يشيران لي أن أستأذن من المدرس بأية حجة حتى نلعب في الحوش ..

سارت العربة تجرها الأحصنة .. وانا أحاول المرور من الزحام حتى أصل إلى وجدي أربت على كتفه وأتقوى بالجموع ضد الدموع - حتى نصل الى المقابر.. يدخل الناس الى حوش المقابر الذي تحده الأسوار الصفراء العالية بينما أصر على الدخول رغم وقوف المسلمين خارج الأسوار وانصراف بعضهم .. وأقف حتى فتح بوابة حديدية يخوض إليها التابوت مصيره الأخير .. ولا تزال عيوني معلقة على وجدي وحشائش صغيرة في أرض المقابر ومرقص الذي وجدته فجأة أمامي .

كان ضابط شاب يحمل رتبة رائد يتحرك فى مسئولية مصطنعة بين زملائه الأقل رتبة حين تقدمت منه ، عرفته بنفسي ومهمتى .. أجاب فى عنف واضح ..

– الأوامر عندى لا أحد يدخل الكنيسة ولو كان نقيب الصحفيين نفسه .. حضرتك ترى بنفسك الناس المزدحمة .. وربنا يستر ولا يزيد العدد عن الحد .. احسن تكون مصيبة فالمنطقة ضيقة ومبنى الكنيسة لا يحتمل ..

تدخل أحد المواطنين الواقفين عند الحدود غير المسموح بتجاوزها ..

– ماذا تقول يا سعادة الباشا .. العذراء تظهر فى هذه الكنيسة وتقول لا تتحمل.

التفت لى الضابط متوترا ..

– ارجوك .. اعتقد أن غدا ستكلف رتبة أعلى منى بالأمر كله وساعتها افعل ما تريد معه .. ورفع يديه فى استسلام ..

– ربنا يعدى هذه الليلة على خير ..

لمحت اثنين من الصحفيين أعرفهم ، جاءوا لتغطية الخبر لصحيفة يومية ، أدركت عدم استعدادى لخوض مشاجرة صحفية مع الضابط أو المسئولين تلك الليلة .

توجهت نحو المواطنين الذين جلسوا على الأرض ونامت سيدتان تستندان على الحائط وكانت وجوههم ممتقعة فى الظلام والأجساد المرتجفة مع نسائم الليل تشرح الحنين للعذراء .. أمسكتنى سيدة نحيفة تحمل وليدها على كتفها تدثره بطرحة سوداء فوق غطاء صوفى متاكل ..

– يقولون أن العذراء ظهرت فى نصف الليل .. كم الساعة معك؟

– من قال لك هذا ؟

– الناس

نظرت إلى ساعتى ..

- على العموم الساعة الآن الو حدة صباحا ..

عند عودتي كانت سيارات شرطة قد اتخذت وقفتها عند النواصى المؤدية الى الكنيسة .. وبعض الجنود فى مؤخرة سيارة نصف نقل يداعبون صاحبهم ..

- أظن ياجورج لو العذراء ظهرت لك ستطلب منها أن تتزوج...

- ماذا ستطلب انت منها يامحمدين ... ؟

قالها جورج فى تحد ..

فأجاب الآخر :

- سأطلب أن أتزوج من أمك ..

كاد الهزل يتحول الى معركة استوقفتنى .. لكن محمدين فيما يبدو عالج الأمر بسيجارة كليوباترا الى جورج اخذها ضاحكا وارتفع صوته ..

- لكن أمي ميته يلواد تتجوز والدى ..

وانفجروا فى ضحك محموم كتمته قبعاتهم خوفا من الضابط القادم ..

منذ رحلت مى وأنا أخشى الذهاب الى فراشى ..أمقت قدوم الليل ووحدتى وحتم النوم ..أشعر كأن حطبا من نار الآخرة موزع - فى اتقان الهى - على ملاءة السرير فوق الوسادة .. فى طيات الغطاء.. أمكث ساعات .. رغم جوع النوم الماثل فى جسدى .. أعيش .. استحضرها .. استقدم كل الذكريات والساعات .. أحاول إطفاء حريق مشاعل فى صدرى كلما أدركت أفوله وذبوله ومقدم نهايته . . تيقنت من مثوله وبروكه وجثومه ..

وكنت أتوق الى الخلاص .. حتى تلتى سحابات النوم فتحضننى رموشى.. وارتكز على الحلم طمعا فى النسيان .

الضوء ساطع يملأ الكون كله ..

والكون .. جبل عال مزروع بخضرة صبا وحشائش ، وشجرة تطل فى نهاية التصاق الجبل بالسماء ...

والسماء بيضاء كالدهان ..

والصخور متراصة على جانبي ممشى ضيق صاعد الى قمة الجبل ..

عند السفح .. يصحبني شاب يرتدى ملابس الرهبان ويطلق صليبا [illegible]
صدره ... وملامحه تغوص فى ضباب غريب ..

يمسك بيدى مبتسما ..

- سنصعد الآن ..

ارفع رأسي فأرى السيدة مريم تقف .. مثلما تظهر فى مداخل الكنائ[illegible]
وتماثيل الأديرة .. فوق رأسها طاقة من جلال وثيابها خضار مزدهر وبيا[illegible]
مطلق ..

تتحرك قدماى فوق الممشى نحو السيدة مريم ..

يربت الشاب على كتفى فأعيره نظراتي من خلفى فإذا تحتنا لصق الج[illegible]
بحر هادر صاخب .. يتملكنى رعب حقيقى .. واشعر قدمى تتفك عن جسم[illegible]
كله .. وانسياق .. مثلما السقوط فى دوامة بحر تتناثر الأحجار والأتربة تح[illegible]
قدمى فوق الممشى وانا اتراجع أهوى نحو البحر وأصرخ ..

- انقذوني ...

الح نفسي مستندا على حائط صخرى لبيت ضخم فسيح .. بوابته خشب[illegible]
ثقيلة من طراز القرون السحيقة .. وطابقه العلوى يطل بنوافذ من حديد وزج[illegible]
أبيض وستائر خفيفة تكشف أكثر مما تستر ..

والشارع ضيق ملتو يتمدد فى حوارى أكثر ضيقا على الجانبين..

كأن المكان مقتنص من شارع المعز لدين الله الفاطمى لكنه ليس هو ..

جلبة طاغية تتسع مع مرور عربات خشبية صغيرة تجرها أحصنة سوداء
وحوذى ساخط .. ومحال مفتوحة يخرج منها شجار محدود بين نجار يعكف عل[illegible]
لوح خشبى طويل يقطعه وسيدة ترتدى ثيابا غريبة تعنفه ..

تخرج العربة برنين جرسها من الشارع بينما تلوح عربة أخرى تحمل سلات من البرتقال ويجرى صبية كثيرون خلفها فى محاولة لنزع البرتقال وسط تهديد العوذى الواقع .

وفى مقهى ضيق تظهر كل مقاعده عند مدخله .. يجلس بعض الرجال يرتدون جلاليب واسعة وعمائم غامضة .. يلوكون كلاما مبتسرا ويطلقون على حوادث لا أتبينها ..

لا يلفت قميصى وبنطلونى الازرق ولا حقيبتى البنية (أهدتها لى مى ولم أتخلص منها مع أوراقها وحاجاتها) لا يلفت الشيئان من هيئتى أحدا من المزدحمين فى الشارع .

تظهر عند نهايته شابة بديعة الحسن .. مدهشة العود ، نقية المظهر ، تلخذ القلب وتستولى على الاهتمام وتسيطر على الحواس وتمتص ثنايا المخ إلى قلبها .

يناديها احدهم ..

- يا أخت هارون ..

لا تتوقف ، لكن الصوت يعلو حتى يكسو المكان كله ..

- هل يخرج من الناصرة شئ صالح ؟

لا تجيب ..

لكن ألمح جوارها يوسف النجار ظهر فجأة ومال على مساحة الهواء المحانية لها لكنها لم تعره اهتماما واضحا .. وأومأت برأسها ..

تسمر يوسف النجار فى مكانه بلحيته المتناسقة وقوامه الشامخ صوت خلفها لاهثا ممسكا بالحقيبة ..

تركت الشارع ..

ودخلت فى ميدان صغير ازدهرت فيه حركة سوق الخضار والفاكهة .. مرقت من زحام المناكب وجلبة النسوة وصياح الباعة وأصوات العربات الخشبية

ولهو الصبية .. و دخلت إلى حارة ضيقة تنتهى ببيوت صغيرة تتوسطها ساحة مستديرة .

سرت خلفها أحاول أن أناديها لكنها لم تجب .. وربما لم أكن قد تكلمت.. تدخل من بوابة صغيرة . تصعد سلما حجريا مستقيما .

تطرق بابا مفتوحا .. ثم تخوض فى منزل فسيح فارغ الا من أثاث فقير سوى بعض الأرائك وبه آلة لغزل صوف وأوانى حليب .

تدلف الى حجرة جانبية وما تكاد تغلق الباب خلفها حتى أدخل.. حجرة كأنها معبد مصغر ، الضوء خافت ، الستائر تغلف الجدران العالية ، السقف يبدو مرتفعا وروائح بخور متآلقة وهواء ذو نكهة خاصة.. ومذاق منفرد . وسجاجيد مفروشة على الأرض دون رسومات على سطحها .. ومائدة خشبية مستديرة فوقها طبق نحاسى يحمل وعاءين فارغين للماء واللبن .. وشمعدان نحاسى بشعلات نحيلة فى شموعه المعلقة ..

اتخذت مجلسهـــا وتهيأت لعبادتها لم استطع الإمعـان فى عينيها ..

ولم أقدر على الاقتراب منها ..

لكنى أسندت حقيبتى على المائدة الصغيرة .. وجثوت على ركبتى بحيث يظهر لى جانبها الأيمن .. بياض بشرتها وإنحناءة أنفها ود ف شفتيها وإستدارة ذقنها وغطاء شعرها الأخضر .

تلعثمتُ لكننى تماسكت .

- أيتها السيدة العذراء المقدسة .. هل يخرج من الناصرة شيء صالح .. هل يخرج من الدنيا شيء صالح ..

هل هناك شيء صالح ؟

السيدة العذراء المقدسة ...

استحييت وألجمت .. وأخذت فى نحيب شرس .. وبكاء مر ..

لم تنظر لي السيدة العذراء .

ارتعدت كفى عندما أطبقت فيها أصابع فيها خشونة وحدة .. ارتدت نظرتى للخلف فرأيت شيخا جليلا يحدثنى فى حزم .

- إتركها الآن ...

ثم وضع إناء فيه ثمار وكوب لبن فوق المائدة .. وأخذ الأوانى الفارغة ... وقادنى من يدى إلى خارج الحجرة ..

وجدت نفسى أمام ساحة الكنيسة فى مصر القديمة .. وقد تجمع جمهور كثيف وزحام خانق وهدير صاخب .. واذا الليل ينكشف عن شرفة فيها إضاءة دائرية صفراء وتظهر خلفها أطياف السيدة العذراء .. فتملأ الضجة المكان ..

حرارة الظهيرة تلسع الجميع .. أسقف سيارات الاجرة .. الأنفاق الأرضية ... المركبات العامة .. جباه العابرين .. وجوه البنات .. عرق الأيدى .. لهث الأنفاس .. الخمول والبطء والكسل الثقيل والعدوانية المفاجئة .

كل شيء كان يقودونى من شارع الهرم إلى مصر القديمة فى إشارات مرور تسير لكى تقف ، وزحام صباحى مذل وأحلام ليل فائت وكوابيس جامحة تعصف برأسى ، كان حلم الأمس بشعا أفزعنى من النوم المختطف . جعلنى أقيم جزعى من الفراش كأن عقربا داس فى إبطى بذيله السام ..

من الذى مال فى الكابوس المغلف بالضباب .. وأخبرنى أن زفاف مى الليلة ثم شيئا كالشوارع التى أعرفها أو الوجوه التى اصادفها .. تقذف بى عند باب غرفة يدخل إليها عروسان وخلفهما عدد من النسوة والأطفال فى تكالب مصطنع .. ثم العريس الشاب يغلق الباب ، فأدفعه ، أرى فى الغرفة مى ترتدى ثوب الزفاف الأبيض يكشف عنقها وكتفيها ومدخل نهديها مبتسمة بينما اختفى الشاب فى غرفة داخلية .. أسلم على مى التى قامت من جلستها على طرف السرير - صافحتنى وقد اخذتها المفاجأة إلى نظرة بعيدة .. وقبلتنى بشفتين باردتين على خدى لكننى لم أرد قبلتها وتجمدت ملامحى فى قسوة .. ثم عاد الشاب الى الغرفة

وهو يخلع قميصه ويظهر صدره عاريا .. يرتبك لكنها تقدمني له .. أصافحه . وأقول ألف مبروك . ثم أنسحب برأسي الى الوراء .. وقبل أن أغلق الباب أفزع . أنهض من النوم ضيق الصدر - ومكتوم النفس ودامع العينين وشاعرا بانسحاق قاتل .

أحاول أن أسترد أنفاسي فلا أجدها ..

أفتح شفتي لعلهما يحركان شلل الجسد ..

أمد كفي فوق الفراش .. أبحث عن العقرب ينقذني من الحياة ..

أشرع في النهوض - لكنني عاجز ..

اصرخ منتحباً ..

- متى يارب . سأخلص من هذا العذاب ..

أعاتب الله ..

- ألم أطلب منك أن تختصر هذه الأيام السوداء . . ألم أتوسل اليك أن ترحمني .... ارحمني .. ماذا فعلت لكل هذا الألم .. الى هذا الحد بلغ شرى وارتفع ذنبي وطال امتحاني واهتز ايماني وانفرطت قوتي وانكشف عجزي .

هبطت من السيارة أعطيت السائق أجرته .والتفت نحو الشارع المؤدى الى الكنيسة . فأصابني المشهد بصدمة عاجلة ..

أرتال من السيارات المزدحمة الواقفة في صفوف طويلة محشورة في الطريق الى الكنيسة ، الاف من البشر تعج بهم الشوارع الضيقة ..

نسوة لابسات السواد ومحجبات وأطفال ورجال من مختلف المقاسات البشرية .. وازياء شتى ووجوه متباينة الملامح .. ومراسلو ومصورو وكالات الانباء يطلون بعدسات تصوير تليفزيوني تنقل صور الحشود - وزحامهم .. وعدسات التصوير الفوتوغرافية . تلتقط مئات المشاهدات والصبية يتزاحمون تحت الأقدام.. وسيارات شرطة تقف على الناصية المقابلة تمتلىء بمئات من جنود الأمن المركزي

يمسكون بالهرلوات والدروع . والبيوت المجاورة تغوص بالبشر فى النوافذ والشرفات ...

كان المشهد .. بكل زواياه مدهشا وغريبا - كل هؤلاء البشر جاءوا عقب تواتر الأخبار عن ظهور السيدة العذراء فى الكنيسة .. لكن ماذا ينتظرون ؟

وجدت نفسى فى مأزق واضح .. فالحدث صار عالميا متناقل الأنباء وصار الاهتمام به مطروحا .. لعشرات الصحفيين والمدخل الى تناوله فى تحقيق صحفى لمجلتى صار ضعيفا مهما حاولت .

بحثت عن وسيلة للوصول الى الكنيسة فوجدت رجالاً من الأمن المركزى يخلون - بناء على أوامر من الضباط - ثغرة لمرور المسئولين والصحفيين لكن حتى الوصول الى هذه الثغرة بالنسبة لمن جاء متأخرا ويقف وقفتى هذه أمر مشكوك فى جديته ..

فى محاولة لاستغلال المأزق سألت رجلا وسط صحبة من الرجال والنساء فيهم معالم مرض مؤكد ، يجلسون محشورين على حافة السور فى إعياء كامل ..

- ماذا يحدث ؟

أشاح بوجهه مجيبا ..

- ألا تعرف .. لقد ظهرت العذراء ليلة أمس .. والناس رأتها ويقولون أن سيدة عمياء أحست بنورها فأبصرت .. لقد جئنا من مستشفى قصر العينى عندما عرفنا إن المعجزات تحدث اذا رأى المريض نور العذراء .

بلعت مناقشة لم تعد ذات فائدة .. ثم انطلقت فجأة وصعدت فوق مقدمة أول سيارة فى صف السيارات المتلاصقة لم يكن أصحابها يتوقعون أن هذا المكان سيسير مزدحما بالناس رغم بعده عن الكنيسة..

سمعت صوت ضغط حذائى على معدن السيارة .. لكننى لم أجد مفرا من مواصلة القفز من سيارة الى أخرى .. تسلقت السيارات مترددا ومرتبكا وخائفا

من الانزلاق فوق الزجاج فيتهشم وأصاب ، بدأ الناس يتابعون محاولتى فى استغراب .. بينما تعجلت الفرار من مراقبتهم أو تدخل الشرطة .. فأسرعت تحركى فوق أسقف السيارات فالتوت قدمى وسقطت ساقى وكدت أقع على حشد من الناس فصرخت فزعا ونهض كثير منهم لإنقاذى ومدوا أياديهم فى اضطراب لمساعدتى على تسلق السيارة مرة أخرى .

وصلت الى نهاية صف السيارات فى الوقت الذى اكتشف كثافة بشرية كبيرة فى المكان الذى يرى منه الناظر ساحة الكنيسة وجانبا من مبناها ..

قفزت من سيارة الى بضعة سيارات فارغة الى جانب السور وتناقلت أقدامى خلف الأظهر وبين الأقدام والأجساد فى غضبة عارمة من الخلق جميعا .. فصرخت فيهم ..

- صحافة ..

فوبخنى أحدهم ..

- وماذا يعنى .. ؟ هى إفتراء على الغلابة من كل ناحية ..

لم أصغ له خصوصا وقد وجدت نفسى فى أحضان حلقة من الجنود منعونى من المرور فصرخت فيهم مرة أخرى والعرق يتصبب من جبينى وعيونى مبحلقة ويدى مرتعشة .

- صحافة ..

انقذنى من غبائهم أحد الضباط الذى تسلمنى دون أن أفيق من هذه الرحلة الشاقة .

- الحق نفسك .. زملاؤك جاءوا ورحلوا .. ونحن سنمنع الدخول اذا جاء وزير الداخلية بين لحظة وأخرى . أدخل من البوابة الصغيرة..

اندهشت من تعاون الضباط غير المعتاد ولكننى لم أستطع شكره إذ دفعنى الى المضى نحو الكنيسة ..

بمجرد دخولي اكتشفت أن مبنى الكنيسة من بعيد غير حقيقته من الداخل رغم قدم المبنى وظاهره المتداعي مساحة كبيرة من الأرض تشغل الكنيسة معظمها في عدة مبان منفصلة ، يتوسطها مبنى كبير ذو معمار قبطي بديع يدل على كونها أثرا قديما ، بينما انشغلت المساحات غير المبنية بالزروع والأشجار بينها تمثال يصل الى ثلاثة أمتار أو يزيد للسيدة العذراء في لون يميل الى الإخضرار .. رائحة غريبة وهدوء منفصل عن الصخب خارج الأسوار ..

هذا ما وجدته في المكان كله .. مع بعض الاقدام التي تمشي هنا وهناك ..

أو الرهبان الذين يظهرون في لمحة ثم يعبرون متعجلين .. قادني أحدهم دون أن أسأله الى السلالم الفقيرة المؤدية الى مبنى الكنيسة الصغيرة على يمين الساحة كأنه مخصص لشكل إداري ما داخل الكنيسة ..

أكملت دهشتي حالة المكتب الذي وجدت نفسي داخله .. غرفة صغيرة تشبه حجرة المدرسين في مدرسة مدينتي وسقف منخفض وظلمة خفيفة وصورة للمسيح معلقة على الجدار ورسوم قبطية ملونة ومكتب خشبي ممتلئ بالصلبان ونقش لاسم الكنيسة ..

استقبلني قس بلحية كثيفة طويلة خشنة وملابس سوداء كاملة ..

- حضرتك صحفي ...

- نعم

- لكنك لم تحضر المؤتمر الصحفي منذ قليل ؟

قالها وهو يجلس على المكتب في مواجهتي حيث غصت في المقعد ..

- في الحقيقة لم أكن أعلم بموعده ..

- لقد جاء نتيجة هذا الإقبال الكبير من مراسلي العالم والصحفيين المصريين ثم وضع يده في درج المكتب الأول وأخرج منه ورقة مكتوبة على الالة الكاتبة وقدمها لي ..

- هذا هو البيان الصحفي الذي أعدته الكنيسة .. وهو ما سنلتزم به فقط في أي كلام . على لسان الكنيسة .

تناولت الورقة وفرت نظراتي فوقها .. أدركت على الفور فقر هذه الورقة تماما مع اعتبار نشر جميع حروفها في الصحف قبل ظهور موضوعي بأيام .. تعجلت مناوشته .

- لكنني أحب أن أعرف شيئا موجزا عن الكنيسة .. ؟ .

وأضفت ..

- كم عمرها ؟

أجاب في اقتضاب ومحاولـــة واضحة لانهاء الموضوع قبل بدايته .. مائة عام على الاقل ..

- هل تدخل ضمن الآثار القبطية المصرية ؟

اندهش لكنه اكمل ..

- لا .. ان هناك بيوتا في مصر تاريخها يعود لأكثر من ٢٠٠ سنة ..

ضحكت نصف ضحكة اكتشفت بلاهتها .. فورا ..

- يعني تاريخ هذه البيوت من تاريخ امريكا ..

لم يبتسم .. ونهض من مقعده لينهي اللقاء ..

فشلت كل مقاومتي أمام رفضه لإستكمال الأسئلة .. شكرته في شكل يظهر انزعاجي ، وخرجت من المكتب لا أعتقد في امكانية نشر أي حرف عن ظهور مريم ، أحكم فشلي المهني حالة الانقباض المروعة داخلي، وتمنيت أن تنتهي الحياة عند هذه النقطة .. ما الذي يدفعنا جميعا للاستمرار ..

- أسف ..

كلكم سعداء وتسيرون في الحياة أقوياء ، وتتحملون عناها بروح رياضية.. وتحبونها .. وتحبكم ..

لكننى مثقل بالفناء والحزن والكراهية .. والنقمة والنقص والعجز .. والضعف .. ألا تصلح كل هذه الصفات كى يلفظنى وجودكم إلى فنائى ...

– ليس معقولا .. أنت ..

صرخ فىّ .. ودخل فى أحضانى مباشرة بجسده الصغير النحيل وثياب القسيسين التى يرتديها ..

– من .. مرقص القمص .. ياخبر أبيض .. ليس معقولا بالمرة..

كان مرقص صاحب الطفولة الثانوية العامة وابن مدينتى الصغيرة .. واقفا امامى فى هذه الكنيسة وسط هذا اليأس المدوى داخلى ..

– لقد وقعت من السماء وانت تلقفتنى يا مرقص ..

– اين أنت يا أخى .. سبع سنوات لم أرك خلالها إلا مرتين فى الكشف الطبى أيام التجنيد ، ومرة فى القطار .. هكذا الدنيا يامرقص..

ضحك فى وقار جديد عليه .. وبانت طيبة الطفولة وشقاوة العمر كلها فى عينيه ..

– كيف حالك .. إننى أتابع ما تكتبه فى المجلة بانتظام .. ؟

– لا أعرف انها مقروءة الى هذا الحد ؟

– كيف وبها كاتب كبير مثلك ؟

– امازلت على أحلامك فى شخصى المتواضع يا مرقص ..

– ألم تكن أديب المدرسة وصاحب أشهر مجلات الحائط بها .. لكن كى أكون صادقا أنا لا أشترى المجلة .. هنا زميل مشارك فيها..

– هنا فى الكنيسة .

– نعم ..

– أتعمل فيها يا مرقص ..

- منذ فترة قصيرة لا تتجاوز شهرا .. أنت هنا طبعا لتجلى العذراء .

- أكيد ..

قدمت له الورقة اليتيمة التى أعطاها لى القسيس ..

- هذه الورقة لا تغنى من جوع يا مرقص . كل الجرائد ستنشرها غدا ..

غموض خفى تعلق بملامح مرقص .. ارتباك خفيف امتزج .. بنظراته .. لكنه أمسكنى ومضى بى خلف الأشجار وسرنا فى طريق وراء المبنى الكبير .. وجدت دربا مرصوفا ببلاط قديم متآكل .. أدى بنا إلى باب حديدى صغير يفتح على غرفة مبنية تحت الأرض بها مروحة هواء بدائية .. ومائدة صغيرة ومقعدان متناثران وبعض العلب الكرتونية الفارغة ، وسلة مهملات خالية وكتيبات دينية مربوطة ورائحة غامضة وصور المسيح والعذراء وحادثة الصلب الشهيرة معلقة .

جلست على أحد المقعدين .. بينما انشغل مرقص بفتح أحد الأدراج وإخراج بعض الأوراق والكتيبات منه .

ثم جلس قبالتى مبتسما ..

- هل خطبت ؟

- لا

- وأين ذهبت قصة حبك منذ أيام المدرسة ؟

- راحت أيامها .. وجاءت أيام أخرى .. راحت أيضا ..

ضحك مرقص ..

- ما شغل عبد الحليم حافظ هكذا كله راح راح . ؟

- آه يا مرقص .. لكن اللدغة الاخيرة صعبة قوى يا أخى لم اكن اتصور حبا بهذا العنف وعنفا بهذا الحب ..

- ألم أقل لك لقد كنت فيلسوف المدرسة .

- يا ليت لم تنته هذه الأيام ..

ثم فجأة قفزت أمام جبهتي صورة عماد ..

- أتذكر عماد صديقنا فى أولى ثانوى الذى مات وهو يركب فوق سيارة النقل متجها الى قريته بعد خروجنا من المدرسة

أبتسم مرقص فى حزن ..

- طبعا .. أذكره .. كنت اغار منه لأنك كنت تضحك على نكته أكثر من نكتى ..

- أول مرة أعرف هذه الحكاية .. لكن للأسف يا مرقص بعد هذه السنين.. لم أعد استطيع الضحك على نكته . رحمه الله أو نكتك ..

ضحك مرقص ..

- ولم أعد أنا أستطيع القاء نكت

انتبهت الى المكان ..

- ما الذى جاء بنا إلى هنا يا مرقص .. ما هذه الغرفة ..

أطلق مرقص ضحكة عالية خدشت وقاره الكهنوتى الذى يحاول اضفاءه على ملامحه الباشة ..

قام من مكتبه وأشار بذراعه الى النافذة المغلقة .. ثم إتجه ناحيتها .. ففتح ضلفتيها .. فظهر جزء واضح من مبنى الكنيسة .

وقف مرقص امام النافذة فى ثبات والتفت نحوى ..

- تعال ..

قمت إليه .. نظرت فى قلق ..

- ماذا ؟

أشار بأصبعه السبابة إلى شرفة صغيرة فى مواجهة المبنى ..

- منذ فترة قصيرة لا تتجاوز شهرا .. أنت هنا طبعا لتجلى العذراء .

- أكيد ..

قدمت له الورقة اليتيمة التى أعطاها لى القسيس ..

- هذه الورقة لا تغنى من جوع يا مرقص . كل الجرائد ستنشرها غدا ..

غموض خفى تعلق بملامح مرقص .. ارتباك خفيف امتزج .. بنظراته .. لكنه أمسكنى ومضى بى خلف الأشجار وسرنا فى طريق وراء المبنى الكبير .. وجدت دربا مرصوفا ببلاط قديم متآكل .. أدى بنا إلى باب حديدى صغير يفتح على غرفة مبنية تحت الأرض بها مروحة هواء بدائية .. ومائدة صغيرة ومقعدان متناثران وبعض العلب الكرتونية الفارغة ، وسلة مهملات خالية وكتيبات دينية مربوطة ورائحة غامضة وصور المسيح والعذراء وحادثة الصلب الشهيرة معلقة .

جلست على أحد المقعدين .. بينما انشغل مرقص بفتح أحد الأدراج وإخراج بعض الأوراق والكتيبات منه .

ثم جلس قبالتى مبتسما ..

- هل خطبت ؟

- لا

- وأين ذهبت قصة حبك منذ أيام المدرسة ؟

- راحت أيامها .. وجاءت أيام أخرى .. راحت أيضا ..

ضحك مرقص ..

- ما شغل عبد الحليم حافظ هكذا كله راح راح . ؟

- آه يا مرقص .. لكن اللدغة الاخيرة صعبة قوى يا أخى لم اكن اتصور حبا بهذا العنف وعنفا بهذا الحب ..

- ألم أقل لك لقد كنت فيلسوف المدرسة .

- يا ليت لم تنته هذه الأيام ..

ثم فجاة قفزت أمام جبهتي صورة عماد ..

- أتتذكر عماد صديقنا فى أولى ثانوى الذى مات وهو يركب فوق سيارة النقل متجها الى قريته بعد خروجنا من المدرسة

أبتسم مرقص فى حزن ..

- طبعا .. أتذكره .. كنت اغار منه لأنك كنت تضحك على نكته أكثر من نكتى . .

- أول مرة أعرف هذه الحكاية .. لكن للأسف يا مرقص بعد هذه السنين.. لم أعد استطيع الضحك على نكته . رحمه الله أو نكتك ..

ضحك مرقص ..

- ولم أعد أنا أستطيع القاء نكت

انتبهت الى المكان ..

- ما الذى جاء بنا إلى هنا يا مرقص .. ما هذه الغرفة ..

أطلق مرقص ضحكة عالية خدشت وقاره الكهنوتى الذى يحاول اضفاءه على ملامحه الباشة ..

قام من مكتبه وأشار بذراعه الى النافذة المغلقة .. ثم إتجه ناحيتها .. ففتح ضلفتيها .. فظهر جزء واضح من مبنى الكنيسة .

وقف مرقص امام النافذة فى ثبات والتفت نحوى ..

- تعال ..

قمت إليه .. نظرت فى قلق ..

- ماذا ؟

أشار بأصبعه السبابة إلى شرفة صغيرة فى مواجهة المبنى ..

- من هنا .. ظهرت العذراء يا صاحبي ..

سرت رعشة كاسحة في كياني ..

- ليس معقولا ..

- ما هو غير المعقول .. ظهور العذراء .. ام وجودك أمام شرفتها بحوالي مائة متر

- ليس معقولا ..

ظللت أكررها حتى ضحك مرقص ورفع كتفيه دهشة .

الساعات الأربع والعشرون التي مرت منذ لقاء مرقص كانت عصبية ..

تركته على أن أعود إليه مساء اليوم نفسه عند البوابة الخلفية للكنيسة .. وعد أن يقودني الى الطابق العلوي للكنيسة التي ظهرت العذراء في شرفة إحدى غرفه .. أكد مرقص وهو يخرج معي من الباب الحديدي الضيق لغرفة القبو التي مكثنا فيها قرابة الساعة .. أن المكان التي تظهر فيه العذراء كان مهجورا منذ حوالي خمسة وعشرين عاما وأن أحدا لم يقترب من هذه الغرفة المغلقة على الغموض .. وأزاح مرقص أوراقا ملقاة في الحشائش الخضراء التي يتجاوزها الى سور المبنى وقد تسربت فيه آثار مياه صرف أو رشح تركت بصماتها من الخضار الداكن والخطوط السوداء على أحجار المبنى المكشوفة ..

- لا تحاول إقناعي يامرقص إنكم لم تطلبوا ترميم هذا المبنى وإعادة بناء الاجزاء المعرضة للإنهيار فيه .

أومأ مرقص في حزن .. من الصعب استشفاف ما وراءه - رغم ان وراءه شيئا بالتأكيد - لم يجب لكننا كنا قد وصلنا .. وسط ذهولي من اتساع المكان الذي اعتقدت ضيقه .. الى بوابة خشبية صغيرة وضيقة ، غير واضحة المعالم في نهاية سور يلف الكنيسة ومبانيها كلها .. قال مرقص في ضحكة مستدعاة من براءة الصبا وصداقة العمر .

– أعتقد أنك ستحصل على سبق صحفى إذا جئت اليوم من هذا المكان .. سأنتظرك ثم أقودك إلى مكان ظهور العذراء لكن ليكن فى علمك لن أصعد معك ..

وقر صدرى خوف مجهول .. وصعد الضيق مرة أخرى ليحتل قلبى ودعته بحرارة صادقة .. ونبت فى طريق ترابى ألقى بى فى حقول خضراء واسعة وتحت شمس حارقة لا تغفر ، سرت حتى أول شارع مرصوف مهجور .. تلتصق به جدران المترو وشبكات حديدية ضخمة تقتحم الرؤية .. ويمر قدوم المترو السريع الصمت الخجول ..

انقضى النهار فى عبث مستمر ضد الحزن .. ضد الكآبة .. والكتابة ..

فهمى شاكر سألنى .. مصادفة وعبورا ، عن تحقيق ظهور مريم العذراء ، وأضاف

– من الواضح أن هناك اهتماما رسميا بالحدث ..

وفى لكنة أعرفها من فهمى شاكر جيدا ..

– ومن المؤكد أن رئيس التحرير سيتحمس لنشره على الغلاف ..

فى المساء جلست بالمقهى وحيدا .. غاب معتز هذه الأيام فى شئونه الخاصة وابتعد كثيرا .. فحفر فى صدرى فراغا آخر جعلنى أصب جام غضبى على الدنيا وما فيها ومن معها أيضا .. طلبت شايا بالحليب وتأملت الوجوه المحيطة بى من سكان المقهى اليوميين .. لم أندهش حين وجدت حادثة ظهور العذراء تسيطر على المقهى بأسره ومثار حوارات جانبية ..

تتقاسم الشيشة والنرد وأكواب الشاى وفطائر الفول والطعمية والأسنان الصفراء ..

– يقولون إن نصف مرضى قصر العينى ذهبوا الى الكنيسة ..

– الجرائد كتبت إن الناس رأت العذراء فى الشرفة كلها تمشى فوق السور .

اضيق أحيانا كثيرة بالقصص التى تلوكها أفواه المقهى . لكن لم يكن هناك أى مفر من الخوض فى الحوار .. اقتربت برأسى من الجالس بجانبى منهمكا مع صديقه ..

– وهل تصدق هذه الحكاية .

دون أن يشغل باله بى .. انتبه لسؤالى ..

– ولماذا لا أصدق .. هناك معجزات كثيرة فى الدنيا ..

تدخل احدهم من جانب المقهى الآخر .

–أهو شىء ينشغل به الناس فترة .. ويمكن يرفعوا سعر السكر هذه الأيام ..

وتنقلت الحوار بين الجميع ..

– ألا تنكر ظهور العذراء فى شبرا بعد ١٩٦٧ .

– لكن كيف تفسر أن الناس حجت إلى هناك فى يوم وليلة ؟

– الناس تتعلق بقشة ..

– ليس بعيدا أن البابا يقصد من ورائها شيئا ..

– هذا أسهل شىء تقولونه .. تضربون فى المسيحيين وخلاص..

– ثم إن مريم هذه ملكنا جميعا مسلمين ونصارى . كفوا عن اللعب بالنار.

انتبهت الى موعد مرقص فقد دخل انتصاف الليل الى اكتماله .

كان عقلى تائها فى كيفية الوصول للكنيسة من هذا المكان الغريب الذى كنت فيه نهارا ، الحقول والظلام والطريق المقطوع .. عبث فى نفسى هاجس التباطؤ والكسل لكن سرعان ما شبت عوامل التحدى واليأس معا فى صدرى – وتمنيت – مؤمنا – أن تحدث كارثة تنهى ما أنا فيه .. حتى لو كانت فيها نهايتى.. على الاقل ستنتشلنى من أزمتى مع قلبى وفشلى .

نسيت كل هذه الهواجس وتمنيت أن أعود فورا إلى سريرى لأنام وجدت نفسى مطارداً من قطيع كلاب ينبح فى شراسة .. ويسير فى إجرام علنى لنهش أنيابه فى الموجودات ..

صعد كل خوفى إلى رأسى الدائرة بحثا عن مهرب .. تقترب الكلاب وأرى أجسادها تتحرك فى ظلمة لا يقطعها نور ولا أمل .. كلما شعرت لهاثها ونباحها .. كلما مت فى جلدى وازداد تخشب ساقى عابرا الطريق الأسفلتى ودقات أقدام الكلاب تعزف بانتظام الخطوات والخبطات على الأرض .. دخلت فى مدق الحقول متحسبا ظهورا مفاجئا لكلب من بين الزروع فأضيع تماما .. نظرى الضعيف لم يساعدنى على تفسير الظلال - الأجسام التى أشاهدها فى المكان بأسره .. انتشرت الكلاب بصوت التقائها بالحشائش والزروع فى جنبات الحقول .. وأنا أستجدى بعضا من قوة الثبات وشجاعة اليائس .

- أنكر يوم وضع كلب أنيابه فى ساقى فقطع بنطالى وجريت مرعوبا فى طفولة المدينة الصغيرة ..

القيت بنفسى محطما فى حضن أمى التى توجست كارثة .. فاحتاطت باستدعاء طبيب وسؤال اهل ومشورة وجيران واتفاق عائلة وكانت تضحك بعد ذلك.. حين تأتى سيرة وفاة ابنة قريب لنا بعد إصابتها بمرض الكلب حين عضها كلب ضال فى شارع شعبى فى القاهرة ..

كنت متألما .. وخائفا وكل ما يحيط بى صمت وترقب عصبيا .. وأظلنى أستشير عقلى هل ظهور كلب ، ام اعتراض لص أكثر فزعا ؟

وفى حمى النهايات المتوقعة استمعت لأغرب أسئلتى لنفسى .. هم

- لماذا أنكر مى الآن وسط هذا الخطر الناشب ، هل يصلح رجالى .. وعاشق - فاشل - النهاية تحت أقدام كلاب ؟

ظهر الشارع الترابى وسور الكنيسة الصغير كأن الإنقاذ الالهى قد تجلى وابتسمت :

- بركاتك يا سيدتنا مريم ..

استخف بى معتز جدا حين قلت له ان أهم شخصيتين أحببتهما فى التاريخ النسائى كله .. السيدة مريم والسيدة عائشة .. ووصل بالاستخفاف مدى السخرية ، حين أكدت له اننى أحب السيدة عائشة حبا حقيقيا ، وأن قلبى يدق عند سماع اسمها .. وان الغيرة تنهش صدرى حين استمع الى اقاصيص وتفاسير حديث الافك ..

ربما بركات السيدة مريم هى ما حلت على ودفعتنى الى هذه المغامرة التى لم أحسب أن عائدها الصحفى مغرٍ الى حد هتك أمانى الشخص الذى تحرص عليه ريفيتى .. وجبنى ...

- الحمد لله لقد وصلت .. أين مرقص ؟

الباب يكاد يكون ذائبا فى الظلام .. تحسست الجدار طويلا لعلنى أتيقن من وجوده .. لكننى لم أعثر عليه لإرتعاش كفى وعرقى الغزير وتوترى الشديد فتمهلت دقائق تلوت فيها آيـــات من القرآن الكريم ودعاء للنبى أحبه .. وتذكرت أبى .. فى غربته وبدأت بحثى الليلى عن الباب الخلفى .. فلما فشلت قررت ، وانا أرى على مقربـــة من السور أنوار الكنيسة النحيلة وأسمع هزات الاشجار والنخيل .. قررت ان أنادى - مرقص همسا وضعت فمى بين كفى وناديت ..

- يامرقص ..

مكثت طويلا .. طبقا للتوقيت النفسى وليس المحلى وتجاسرت ..

تسلق السور الشئ الذى لم افعله منذ تسلقى سور المدينة الجامعية الخلفى بعد انتهاء المواعيد الليلية ..

وضعت قدمى فى أول بروز وجدته صالحا .. لكننى تعثرت وكدت اسقط فتماسكت ورفعت يدى أحاول التشبث بحافة السور .. فى المرة الثالثة تمكنت من ذلك .. شـــددت قبضى ونهضت بجسمى وتيقظت تماما حتى كنت فوق الحافة تماما ، مجروحا ومخدوشا وفى عرق يكفى نصف أجساد البشر .

قفزت فى رهبة كاملة إلى ساحة الكنيسة ..

بحثت عن ملامح المبانى التى رأيتها صباحا .. عن المكان الذى وقفت فيه مع مرقص الذى إزداد غموضه بغيابه عن موعدى ..

هواء يغازل الريح ..

وظلمة تعبث بالنور ..

وصمت يهيئ الوجود لإسترخاء العواصف ..

وأقدامى متعبة جدا تسعى لنهاية موقف غامض مجهول معه .. وسورالبر المفاجأة حتى إبتلعت روحى فى جوفها ..

طغى نباح الكلاب على كل الموجودات وأحسست خربشة أقدامها فى سور الكنيسة وتلفت ملتاعا فإذا بأحد الكلاب قد صعد إلى حافة السور ووقف فى قمة النثاب ..

- ماذا سيحدث ؟ أين مرقص ؟ أين مريم ؟

التقطتنى الشرفة التى قال مرقص ان مريم ظهرت فيها .. كانت هناك أمامى على بعد أمتار .. فقط على أن أجد الباب المؤدى الى المبنى.. جريت بقوة مستمدة من الخوف والضعف .. درت حول المكان.. فرأيت بابا خشبيا ثقيلا أزحته إلى الداخل فأصدر أنينا عاليا .

دخلت فى ظلام رهيب ، فكته بعض شعلات من نور متسللة من زوايا المدخل وممرات السلم .

المفترض أن الشرفة فى الطابق الثالث . تحسست إفريز السلم.. وبدأت أعد درجاته وأرقام الطوابق .. المبنى مهجور بالفعل ومظلم وغامض .. كما أن ممراته الطويلة وأبواب حجراته المغلقة وتماثيله وصوره المكسورة ومواء القطط البعيد ، كل ذلك يدفعك الى التراجع ..

لكننى تجاوزت حد التفكير .. وسرت فى اللاشىء .. ذهنى صار صافيا ..

رائقا ولا أفكر في أي شيء بالمرة .. كنت أخرج من روحي لأشاهد روحي ، أنفصل عن ذاتي لاشهد على جسدي .. حتى دقات قلبي المضطربة باتت هادئة معتدلة الخطوات والدقات .. وصلت دون ارتباك ولا تردد إلى الطابق الثالث .. واقتربت من أبوابه ... اضغط على مقابضها حتى انفتح باب كبير في رقة .. دخلت برأسي. ثم جسدي ، الى الغرفة ... كانت السيدة مريم تجلس على ركبتيها أمام شرفة مفتوحة الأبواب تلقي بأضواء الليل على زوايا السقف وجوانب الحوائط الأربعة .. وشريحة من النور فوق رأس مريم .. بغطائها الأخضر والأبيض وخصلات شعرها الظاهرة وانحناءة جسدها الراكع وهدأة وجودها المشرق ..

انطلقت من داخلي كل الأحزان والأفكار والهواجس .. وأحسست انخلاع قلبي واستواء روحي وغسيل جسدي وطهر عيني ..

وانفصلت عن واقعي بالتقاء بالتاريخ وصدقت أسطورة التجلي ولكن شهقة فزع مرعبة صدرت فجأة عن التفاتة السيدة العذراء نحوي واكتشافها وجودي .. صرخت في هلع وانتفضت في رعب ..

- من أنت ..

غُشي عليّ وتساقطت على الجدار ، أستند على خلاص يعيدني للحياة .. وسط ارتباك ودهشة وخوف وذهول ورعب استبينت ملامح سيدة تقترب مني وتلمس جسدي وتهز كتفي ..

- من أنت ؟ هل أرسلك أحد ؟ هل تعرف الأب جورجياس .. ؟

كانت أمامي أدمية كاملة .. سيدة بيضاء .. ياللهول .. تضع احمر شفاه فاقعا . ومساحيق تجميل وعلى أظافرها طلاء برتقالي عودها دقيق ووجهها جميل وعباءتها تفصل قسمات جسدها .. ونبرة صوتها فيها ثقة .. كما أن فيها غنجاً وأنوثة تهز بعطر فواح كينونتي وانتقل همسها الى صراخ ..

- من أنت .. لماذا لا تجب .. ؟ كيف وصلت الى هنا .. من دلك على المكان .. لماذا لم يأت الاب جورجياس منذ الأمس .. انني لا أطيق هذه الغرفة ..

روحي منقبضة .. واخاف وحدتي ووحشتي لم يكن هذا هو الاتفاق .. قال يومين وترجعين الي بيتك .. ثم ما الذي يحدث تحت .. لماذا اختفى الأضواء فوق الشرفة

عادت الى جلستها .. وقرفصت فوق السجادة .. ومدت يدها الى علبة تبغ أمريكية واشعلت سيجارة فى قلق ورعشة لأناملها ..

هزت كتفيها والحت فى السؤال !

- ما اسمك .. ؟

- ما مهمتك ؟

هل هناك تعليمات ستبلغها لى أم ان اللعبة انتهت ويجب ان نهبط سويا .. لقد قال جورجياس ان أحداً لا يعرف هذا الموضوع سوانا .. من أنت إذن ؟

هل أنت متعجل لهذا الحد ؟

كان كل شئ أمامي متخبطا سافلا .. انسحقت فى هوة عميقة تجنبني وتدوسني بالنعال .. لم أكن مصدقا لنفسي .. لوجودي .. لوصولي .. لزيف ما حولي وحول ما زيفي ، هززت رأسي محاولا أن أقاوم ، أن افيق ، ألا اعدو فاراً هاربا من المكان كله .. سمعتها تدعوني للجلوس ..

كنت فى حاجة ماسة اليه ..

جلست أمامها .. دعتني الى سيجارة .. وضعت كفي على صدري أني لا أدخن ؟

- على العموم المكان خانق ..

قالتها وهي تشيح بالسيجارة ، تطفىء شعلتها فى الأرض ..

التفت إلى المكان فإذا بأطعمة وبقاياها فى الأركان وعشرات من زجاجات وعلب المياه الغازية وحوض ماء وسرير حديث الطراز ..

- تخيل منعتم عنى الإذاعة والتليفزيون واشعال النور .. وصدقت انها فترة وستمر . لم أكن أعتقد أبدا أن الأمر سيتحول الى سجن .

ضجت فى ضحكة ذات رنين مهووس ..

- أأنت مسلم مثلى ؟ !

ان فى وجهك اثار علامة صلاة ؟

وامسكت بطنها من مقاومة الضحك

واستلقت بظهرها على السجادة .. تقاوم ضحكا كاسحا ..

- يعنى لم يجد الأب جورجياس ممثلة تافهة غيرى للقيام بهذا الدور .. ولم يجد غيرك لجعله مندوبه ..

- من الأب جورجياس هذا ؟

سألتها بصوت يخرج من كهف عميق ...

- نعم أتسأل .. ألا تعرف من أرسلك .. ؟

ثم ضربت على جبهتها فى عنف مصطنع

- ياخبر أسود .. ألا تعرف جورجياس فعلا ..

- إذن من أنت ؟

- هل تصدقين ؟

- طبعا

- أنا صحفى ..

بدت منها صيحة دهشة ونظرة إعجاب مفرطة ..

- والله طول عمرى كنت أحلم أصبح صحفية ..

انتابنى زلزال اقتلعنى .. واكتسح خلاياى وصرخت فيها ..

- ألست .. السيدة مريم فعلا .. ؟

ظهرت على ملامحها آثار ضيق وتبرم ..

- مريم من ياعم ؟

أما زلت مغشيا عليك .. يمكن السيدة مريم تظهر بجد وتتجلى أحيانا كما يقولون ، لكن هذه المرة أنا التي تجليت .. أنا فقط .. ليست هناك مريم ... استيقظ .. كل المسألة لعبة كما قلت لك .. افق ياعم .. كيف تقول انك صحفى ولم تفهمها وهى طائرة ..

شعرت بغثيان أوشك على قضم عنقى .. وأحسست غيابى عن الوعى تسلمنى الظلمة للظلام .

تنبهت على عرقى الغزير وانفكاك جسدى وخمود انفاسى ....

فتحت عيونى فيما حولى .. رأيت بصعوبة الغرفة ذاتها وبعض علامات الفجر القادم .. لكن شيئا ما مزق هدوئى .. وأنا أتبين أصابع تتحرك فوق ساقى العاريتين .حملقت مذعورا فى وجه السيدة اللاهثة وهى تتحسس بأصابعها جسدى وقد خلعت عنى ثيابى . وتبرك فوق فخذى تقبلنى وتعانقنى وتقتحمنى وتلهث محمومة وتئن متوجعة ..

إرتعشت فى حمى الموت ..

إنتفضت منكسرا .

- ماذا تفعلين ؟

نامت فوق جسدى .. تمطرنى قبلات مرتجفة وتغوص بانفاسها وشفتيها وثدييها فى لحمى ..

ألقيت بها من فوقى ..

صرخت ثائرة هائجة ..

- مالك .. ماذا بك ؟ تعال مم تخاف ؟

انتشلت ثيابى الملقاة على الأرض . ارتديتها مهووسا ..

قامت من رقدتها فظهرت قامتها عارية مغطاة بالعرق والرغبة .. جريت قبل ان تقترب منى ..

هبطت السلالم سقطت .. قاومت .. عدوت الى الباب .. واتجهت الى السور حافيا وداميا .. ومرعوبا ...



اول النهايـــات

أعــود - إذا كــان لى أن أعــــود -
إلى وردتى نفسهــا وإلى خطوتى نفسها .

رفعت الحقيبة على كتفى ..

كان الشارع فى هدوء ساعات المغرب حين يقف الكون بين النهار والليل حائرا إلى أيهما ينتمى ..

السماء رمادية ..

والوجوه تختفى من فوق الأرصفة .. عند إشارات المرور .. ثم تظهر فى السيارات . المركبات العامة .. أمام المحلات ..

القاهرة كما اعرفها فى هذا الوقت والمكان .. كأنني اقف على قشرة ثلج فى جبل جليد ذاب كله وبقيت هى .. واقدامى .. الحقيبة فوق كتفى مكدسة بثيابى ورحيلى ..

والأحداث كلها تعصف برأسي وتحطمه تحطيما ... كان خطاب مرقص مطوياً فى جيبى ، تركه لى فى الاستعلامات ، قال أنه عرف كل شئ وقد أبلغ البابا بكل التفاصيل ، وأن الأب جورجياس سيتم تجريده فى الكنيسة ، ثم أضاف مرقص بخطه المنمنم الصبيانى البرئ جملة واحدة فى نهاية الصفحة قال .. ابحث عن مريم أخرى يا ابراهيم .. وأضاف مريم حقيقية يا ابراهيم ... ياعيسى .

روحى المسلوبة .. تبحث عن سيارة اجرة تقلني الى موقف أحمد حلمى حيث الذهاب لأبى وأمى .. لأهلى وشارعى الصغير .. البلدة الطيبة بياسمين ابى وبلد أمي وطهر الابتعاد عن القاهرة ..

توقفت سيارة أجرة ..

جريت نحوها .. فتحت الباب الخلفى حيث جلست سيدة ترتدي ثيابا سوداء جوار السائق .. ادخلت حقيبتى وقدمى .. وجلست فإذا عن يسارى فى نفس المقعد سيدة أخرى ترتدى نفس الثياب السوداء البلدية التى ترتديها سيدات الاحياء الشعبية . مزينة بخيوط فضية عند الصدر . والرسغين ..

كان مظهرهما غريبا .. الوجوه خمرية داكنة .. ومساحيق غبية.. وملامح فجة ولبانة فى الأفواه .. يمضغانها فى صوت رقيع.. وطلاء أظافر متآكل الحمرة.. كانت رائحتهما غريبة ومزعجة ..

استندت السيدة الأمامية على مقعد السائق ولكزته فى كتفه حين داعبها بفجاجة جنسية ..

– لم نفسك يا أسطى ..

لم يلم نفسه السائق فقد دخل معهما فى جدل أصر فيه على أنه فى الخدمة ، وأن الرجل الذى تشاجرتا معه لحظة ندائهما على السيارة لا يليق بهما وفى تلميحة فاجرة .

– هل اختلفتم على السعر ..

– سعر .. يا رجل يارمة ..

ثم نداء عاهر .

– نحن نكيل بالذهب ..

ضربت الثانية كتفى وهى تفتح فمها فى ابتسامة داعية ..

– أليس كذلك يا أفندى ..

لم أنطق ..

- أنت خائف ..

ورنة ضحكة تعلو

قال السائق مبتسما ..

- نحن نوصل البك .. ونتفاهم ..

- ماشي ..

قالت السيدة المجاورة لي .. لكن الأخرى التفتت لها في غضب ..

- أنا مهدودة روحي انت ..

كانت ندبة على خدها واضحة وخطوط وجهها محددة بالإرهاق . والعرق المتصبب ، شعرت غثيانا ينتابني مثل بول الأطفال اللاارادى حين يفزعهم الليل أو الصراخ أو الجوع ..

صرخت في السائق ..

- نزلني هنا من فضلك ..

- ألن تذهب لأحمد حلمي ..

- أرجوك .. هنا .

ضحكت المرأتان في قرقعة عالية ..

وتمهل السائق على يمين الطريق .. توقف ..

هبطت ممسكا بالحقيبة ..

وقفت أمام النافذة الأمامية .. ناولت السائق النقود فأمسكت بها السيدة وأطبقت على أصابعي .. فانتزعتها منها مرتجفا .. فضجوا بالضحك ..

انطلق السائق بسيارته ..

وقفت فى الميدان وحيدا ..

ممسكا بالحقيبة ..

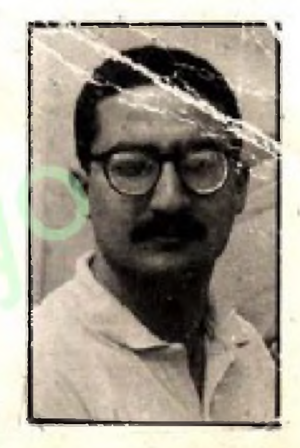
متلفتا حولى ..

كنت واحدا .. ووحيدا .. ووحدى ..

رقم الايداع : ٥٢٧٩ / ١٩٩٣
I - S - B -N
977 - 07 - 027 - 2

هـــ روايــــة

الصحفيون ، هم الذين أوكل لهم كشف الحقيقة ، كما أنهم أيضا الذين يصنعون الزيف ، وبين الحقيقة والزيف وفى هذه المنطقة الحرجة والملغمة تأتى رواية «مريم : التجلى الأخير» وإذا كانت الروايات التى تناولت الواقع الصحفى قد توقفت عند الخمسينات أو الستينات، فإن هذه الرواية تخوض وتغوص فى عالم الثمانينات وفيما نعيشه الآن ، أبطالها قد لا تعرفهم لكنك تقع تحت طائلة صناعتهم للحقيقة حينا ، وللزيف أحيانا ، والرواية مكتوبة بمزيج خصب بين التاريخ والتراث حيث النبى ابراهيم والسيدة مريم ، وبين الواقع حيث لا أنبياء ولا مريم على الإطلاق ، انها رواية - فى كل الأحوال - تضمن لك قليلاً من التوتر وبعض الارتباك .. وكثيراً جداً من الصدمة .



إبراهيم عيسى

* من مواليد نوفمبر عام ١٩٦٥.

* يعمل صحفيا فى مجلة روز اليوسف ، يكتب الرواية والقصة القصيرة والمقال .

* صدرت روايته الاولى فى وصف من يمكن تسميتها الحبيبة .. فى عام ١٩٨٩ وهى تجربة روائية لغوية غريبة .

* روايته الثالثة «صار بعيدا» الصادرة عام ١٩٩٢ بمثابة سيرة ذاتية من حياة عائلة فى زحام من الذكريات والطقوس .

* له مجموعة قصصية واحدة تحمل عنوان «العصافير لا تعشق الطيران».